

مدينة بسطة الأندلسية Baza

من الفتح حتى السقوط

٩٢ - ٨٩٥هـ / ٧١٠ - ١٤٨٩م

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب: مدينة بسطة الأندلسية Baza

من الفتح حتى السقوط

٩٢ - ٨٩٥ هـ / ٧١٠ - ١٤٨٩ م

المؤلف: أ.د. حسين جبار العلياوي

أ.د. جاسم ياسين الدرويش

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين



طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٩٤٤٦٢٨٥٧٠ - ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

مدينة بسطة الأندلسية Baza

من الفتح حتى السقوط

٩٢ - ٨٩٥ هـ / ٧١٠ - ١٤٨٩ م

أ.د. حسين جبار العلياي أ.د. جاسم ياسين الدرويش

كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة البصرة

المقدمة

تعد دراسة المدن الأندلسية من المندوحات المهمة بسبب ما تتمتع به من خصوصيات في المجالات السياسية والاجتماعية فضلاً عن الجغرافية ، وقد لعبت الأخيرة دوراً بارزاً في التأثير على الحياة السياسية والاجتماعية لتلك المدن لتنوعها وكثيرة القلاع والحصون والجبال بحيث نادراً ما نرى مدينة إلا وهي قائمة على قلعة أو حصن أو جبل أو قرية منه ، ولهذا فإن تاريخ أي مدينة هو عبارة قصة فيها ما يميزها عن غيرها ، ومن هذا المنطلق جاءت دراستنا لسلسلة المدن الأندلسية.

وفي هذه الدراسة جاء اختيارنا لمدينة بسطة الأندلسية ، ومن أهم ما تميزت به هذه المدينة هي مواكبتها للتاريخ الإسلامي الأندلسي منذ الفتح حتى السقوط وكان سقوطها إيذاناً بسقوط ما تبقى من الأندلس كلها بيد النصارى ، وتطلبت مادة الدراسة تقسيمها إلى خمسة فصول ، ركز الفصل الأول على الجغرافية التاريخية لمدينة بسطة وحياتها الاقتصادية ، فيما جاء الفصل الثاني ليتتبع الحياة السياسية فيها وتاريخها السياسي من الفتح حتى نهاية عصر

الخلافة ، واستعرضنا في الفصل الثالث التطورات السياسية والعسكرية التي مرت بها المدينة في عهود الطوائف والمرابطين والموحدين وبنو الأحمر ، فيما ركز الفصل الرابع على المرحلة المهمة والحاسمة من تاريخها وهو سقوط المدينة وأثر ذلك على مستقبل المسلمين السياسي في الأندلس ، وتناول الفصل الخامس الحياة الفكرية فيها ودور أهلها في مختلف العلوم والمعرفة آنذاك.

الفصل الأول

الجغرافية التاريخية لمدينة بسطة Baza

أولاً: الموقع والتسمية

بسطة مدينة أندلسية قديمة ، وهذه اللفظة تدل على أنها كانت موجودة قبل الإسلام^(١) ، ويرجع بناؤها إلى العهد الروماني^(٢) . تقع مدينة بسطة في الجزء الأوسط من الأندلس الذي قاعدته طليطلة Toledo ، وقد أشار البكري إلى أنها واحدة من عشرين مدينة في هذا الجزء^(٣) ، كما ذكر ذلك مؤلف مجهول بقوله: ((فأما المدن المتوسطة مثل شـريش^(٤) وقرمونة^(٥)

(١) يسمي الجغرافيون العرب المدينة التي أنشأها المسلمون بالحدثة، أما التي

كانت موجودة قبل الإسلام بالقديمة أو الأزلية.

(٢) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٢٣.

(٣) المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.

(٤) مدينة أندلسية تعد من أعمال كورة شنونة تبعد عن إشبيلية مرحلتان،

ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٢/٢ - ٥٧٣؛ ابن غالب، فرجة الأنفس، ص

٢٥؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٥٩.

(٥) قرمونة مدينة أندلسية تقع غربي قرطبة وشرقي إشبيلية، ينظر: ياقوت،

الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٢٥.

وبسطة وطليلة^(١) وأبدة^(٢) وبياسة^(٣) وباجة^(٤) ... ، فما يحوي عددها
الحصص^(٥).

تعد مدينة بسطة من أعمال كورة جيان Jaen ، وقد أشار إلى ذلك ابن غالب عند حديثه عن جيان بقوله: ((ولها مدينة بسطة ...))^(٦) ، إذ أن المسافة بينهما ثلاث مراحل^(٧) ، كما تقع بالقرب من قسطلونة Castellon^(٨) ، وأيضاً تقع بالقرب من بسطة

-
- (١) طليلة وهي أحد مدائن الأندلس القديمة وكانت قاعدة مملكة القوط بينها وبين قرطبة مسافة سبعة أيام، ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٩.
 - (٢) مدينة بالأندلس تعد من أعمال كورة جيان، إذ المسافة بينهما خمسين كيلومتراً، كما أنها تقع بالقرب من مدينة بياسة، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٧.
 - (٣) بياسة مدينة بالأندلس من أعمال جيان، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٥؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٩٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.
 - (٤) مدينة أندلسية قديمة، تقع غرب الأندلس، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢١؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٧٥.
 - (٥) تاريخ الأندلس، ص ٤٥.
 - (٦) فرحة الأنفس، ص ١٥.
 - (٧) المرحلة تساوي مسيرة ٣٧ كم في حالة السير الاعتيادي، ينظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٩٧٣.
 - (٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٩٨/٢.
 - (٩) من مدن شرق الأندلس بالقرب من بسطة، ينظر: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٣.
 - (١٠) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٣.

مدينة وادي آش Guadix^{(١)(٢)} ، إذ أن المسافة بين المدينتين ثلاثون ميلاً^{(٣)(٤)} ، وتحدث الإدريسي عن الطريق الذي يربط مدينة وادي آش بمدينة بسطة بقوله: ((... ، ومدينة وادي آش رصيف يجتمع به طرق كثيرة فمن أراد منها مدينة بسطة خرج من وادي آش إلى جبل عاصم ثم إلى قرية يورا إلى مدينة بسطة وبينهما ثلاثون ميلاً...))^(٥) ، كما تبعد بسطة عن مدينة لورقة Lorca^(٦) ثمانين كيلومتراً^(٧) ، وهي أيضاً وسطاً بين مدينتي مرسية^(٨) وغرناطة Granada^{(٩)(١٠)} ، ولما كانت المسافة بين مدينة وادي آش

-
- (١) مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، لها بابان شقي على النهر، وغريبي على خندق، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٦٠٤.
 - (٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١١٣.
 - (٣) الميل يساوي ٢ كم، ينظر: هنتس، المكاويل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
 - (٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.
 - (٥) نزهة المشتاق، ٥٦٨ / ٢.
 - (٦) تقع مدينة لورقة في شرق الأندلس بكورة تدمير، شمالي مدينة المرية ينظر: ياقوت الحموي، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٢.
 - (٧) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.
 - (٨) وهي أحد مدن شرق الأندلس، ومن مدن كورة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن الثاني واتخذها داراً للعمال، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣٩.
 - (٩) مدينة أندلسية قديمة تبعد عن البيرة ستة أميال، وتعرف بمدينة اليهود، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٤؛ ابن الخراط، اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٧٤؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٧.
 - (١٠) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.

وغرناطة ثمانية أميال^(١) ، فعلى هذا فإن المسافة بين مدينة بسطة
وغرناطة ٨٣ ميلاً ، أي ما يعادل حوالي ١٦٦ كم.

وقد وضع البكري مدينة بسطة في الجزء الرابع ، إذ قسم الأندلس
إلى ست ولايات استناداً إلى التقسيم الروماني القديم لشبه جزيرة
أيبيريا Iberia ، والجزء الرابع يشتمل على عشرين مدينة قاعدتها مدينة
طليطلة ، وأضاف إليها: مدينة أوريط Oreto^(٢) ، ومدينة
شغوية Segovia^(٣) ، ومدينة أركبيقة^(٤) ، ومدينة وادي الحجارة
Guadalajara^(٥) ، ومدينة شقونة Siguenza^(٦) ، ومدينة أكشومة^(٧) ،

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٧/٢.

(٢) مدينة أندلسية تقع بالقرب من طليطلة، ينظر: الحميري، الروض
المعطار، ص ٦٦.

(٣) وتعرف شقوية أيضاً، وهي مدينة أندلسية تبعد عن طليطلة مائة ميل،
ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣٥٠.

(٤) لم نعتز لها على ذكر في المصادر الأخرى التي بين أيدينا ولعل فيها من
التصحيف ما تعذر على ذلك، وهي حسب البكري من توابع طليطلة.

(٥) وهي مدينة أندلسية، وتعرف بمدينة الفرج أيضاً، وهي بين الجوف والشرق
من قرطبة، وتبعد عن طليطلة خمسة وستون ميلاً، ينظر: الحميري،
الروض المعطار، ص ٦٠٦.

(٦) وتعرف شغونة أيضاً، وهي مدينة أندلسية من توابع طليطلة، ينظر:
البكري، المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.

(٧) ذكرها ياقوت بلفظ أكشونية (Ocosnoba)، الأندلس من معجم
البلدان، ص ٤٠؛ وكذلك وردت عند الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٢؛
وقال ابن غالب أكشونية: (تتصل بأحواز الأشبونة ولها سهل منبسط،
كثيرة المرافق وضروب الثمار وطيب التزرع وفيض البركات، ولها جبل جمع
المسارح النائية والمياه الجارية، وصيدها كثير في البر والبحر، وهي من
أحسن البقاع متنزها وبحرها يخرج منه العنبر،... ومسافة ما بينها وبين
قرطبة للراكب القاصد تسعة أيام) فرحة الأنفس، ص ٢٢.

ومدينة بلنسية Valencia^(١) ، ومدينة بلازية(بلازيا)^(٢) ، ومدينة أوربولة Orihuela^(٣) ، ومدينة ألس Elche^(٤) ، ومدينة شاطبة Jativa^(٥) ، ومدينة دانية Denia^(٦) ، مدينة بياسة Baeza ، ومدينة قسطلونة ، ومدينة منتيشة Mentesa^(٧) ، ومدينة وادي آس Orx ، ومدينة بسطة ، ومدينة أرش وهي بجانة Rechina^(٨)(٩) .

-
- (١) وهي إحدى قواعد شرق الأندلس المهمة، سهلية كثيرة الخيرات، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص١٦؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص٨٥.
 - (٢) لم نعثرها على ذكر في المصادر الأخرى التي بين أيدينا ولعل فيها من التصحيف ما تعذر على ذلك، وهي حسب البكري من توابع طليطلة.
 - (٣) مدينة أندلسية، تعد قاعدة كورة تدمير، لها بساتين وفواكه، ينظر الحميري، الروض المعطار، ص٦٧.
 - (٤) مدينة بالأندلس تعد من كورة تدمير بينها وبين لقنت خمسة عشر ميلاً، ينظر: القزويني، آثار البلاد، ص٥٠٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص٣٠.
 - (٥) مدينة أندلسية تبعد عن دانية خمسة وعشرون ميلاً، وعن بلنسية اثنتان وثلاثون ميلاً، وهي من مدن شرق الأندلس، ينظر: العذري، ترصيع الأخبار، ص١٨-١٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٦/٢.
 - (٦) وهي من مدن شرق الأندلس الواقعة على البحر المتوسط، لها روض وسور حصين، وبها دار لإنشاء السفن، ينظر: العذري، ترصيع الأخبار، ص١٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٣١-٢٣٢.
 - (٧) وهي مدينة أندلسية قديمة، تعد من أعمال كورة جيان، وتشتهر بحصانتها، ولها بساتين وأنهار وعيون، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص٢٧٦.
 - (٨) مدينة أندلسية تعد من كورة البيرة، ينظر: الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص٢٩؛ القزويني، آثار البلاد، ص٥٠٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص٧٩.
 - (٩) المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.

فيما ذهب الإدريسي إلى أن مدينة بسطة تقع ضمن إقليم البيرة Elvira^(١) ، وذكر أن فيه من المدن أغرناطة ووادي آش والمنكب Alemunecar^(٢) وحصون وقرى كثيرة وفيه مدينة بسطة وحصن طشكر Huescar الموصوف بالمنعة^(٣).

ويبدو أن قرب مدينة بسطة من البيرة جعل بعض المصادر تصنفها ضمنها بدلاً من جيان ، وما يدل على ذلك ما ذكره ابن الخراط بقوله: ((بسطة من كورة جيان في آخر الكورة مجاورة البيرة من جهة الشرق))^(٤).

أما تسميتها فيبدو أنها مشتقة من طبيعتها ، فيقال أرض بسطة بالفتح أي مستوية ، وأرض بسيطة اسم لها^(٥) ، وأرض بسيطة أي واسعة عريضة^(٦) ، وقد عبر ابن الخطيب عن ذلك بقوله: ((بسطة بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب))^(٧) ، ويفهم من قول

(١) وهو إقليم بالأندلس متصل بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، إذ أن المسافة بينهما تسعون ميلاً، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٤٠؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٠٢.

(٢) مدينة بالأندلس تبعد عن غرناطة أربعين ميلاً، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٨.

(٣) نزهة المشتاق، ٥٣٧/٢؛ ينظر أيضاً: أرسلان، الحلل السندسية، ٧٦-٧٥/٢.

(٤) اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٢١.

(٥) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٤٤٠/٨ - ٤٤١ (مادة بسط).

(٦) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٦٥٩/١؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٤٥/١٩ (مادة بسط).

(٧) ريحانة الكتاب، ٢٥١/٢؛ معيار الاختيار، ص ١٠٩؛ خطرة الطيف، ص ٣٧.

ابن الخطيب أعلاه أن بسطة اسم يطلق على المدينة والبلد ، وهذا البلد الذي يحيط بالمدينة عبارة عن حدائق غناء مترامية الأطراف تصل إلى جبال غرناطة^(١) ، وبسبب اتساعها أضيفت لها العديد من الأعمال منها:

١- أشكون ، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة^(٢) .
٢- برشانة ، Purchena^(٣) والنسبة إليها برشاني^(٤) ، قال ابن سعيد: من حصون بسطة على نهر المنصورة المشهور بالحسن ، لما عليه من الضياع والحصون والجنان^(٥) ، وذكرها ابن الخطيب عند حديثه عن نواحي بسطة وزيارته لها سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م فقال: ((وطالعتنا برشانة حرسها الله ، فحيتنا ببواكر الورد ، ونضت عنا

(١) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.

(٢) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

(٣) هناك بعض الاختلاف في تبعيتها في المصادر، فقال الإدريسي إنه من حصون بجانة، نزهة المشتاق، ٥٣٧/٢ ؛ وقال المراكشي إنها من أعمال المريّة بالأندلس، المعجب، ص ١٨٧ ؛ وذكر الحميري إن برشانة (حصن على مجتمع نهرين وهو من أمنع الحصون مكاناً وأوثقها بنياناً وأكثرها عمارة) ، الروض المعطار، ص ٨٨ ؛ ووردت عند مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس (تحقيق مولينا) ص ٦١ بلفظ برسانة، وفي تاريخ الأندلس (تحقيق بوباية) ص ١١٢ بلفظ بوسانة ؛ وقال ابن حيان إن هذا الحصن بني أيام الأمير عبد الله بن محمد، المقتبس (تحقيق العربي) ص ٧٥.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ١١/١٨٩.

(٥) المغرب في حلى المغرب، ٢/٨١.

برود ألبرد ، وشملتنا بالهواء المعتدل ، وأظلتنا برواقها
المنسدل ،...))^(١).

٣- بَشر ، ذكره شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة ، وهو
حصن منيع^(٢).

٤- بلس السكة ، ذكرها ابن الأبار ، وقال: ينسب إليها بعض
أهل العلم^(٣) ، وفرّق بينها وبين بلس لورقة^(٤).

٥- تاجلة^(٥) ، قال ابن سعيد: حصن من عمل بسطة على وادي
المنصورة^(٦).

٦- شرغلي ، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة^(٧).

٧- شوسر^(٨) ، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال
بسطة^(٩).

(١) ربحانة الكتاب، ٢٥٤/٢.

(٢) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

(٣) التكملة، ١١٨/٢.

(٤) التكملة، ١٠٤/٢.

(٥) ذكر ابن الأبار أن تاجلة من عمل المريّة، التكملة، ١١٩/٣.

(٦) المغرب في حلى المغرب، ٨٤/٢.

(٧) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

(٨) ذكر ابن الخطيب قرية شور وقال : يقال لها شون وتقع شمال غرناطة،

الإحاطة، ١٢٩/١ ولعل هناك تشابه مع اللفظ أعلاه.

(٩) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

٨- طشكر^(١) ، وهو حصن منيع وصفه الإدريسي بالقول:
 ((حصن طشكر الذي فاق جميع حصون الأندلس منعة وعلواً
 ورفعة وطيب تربة وهواء ، وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا
 الحصن إلا موضعان وبين الموضع والموضع اثنا عشر ميلاً على طرق
 مثل شرك النعل ومدارج النمل ، وبأعلاه الزرع والحصاد والمياه
 وإليه الانتهاء في الخصب وجودة الحصانة))^(٢) ، وقال عنه ياقوت:
 ((حصن حصين في كورة جيّان من أعمال الأندلس لا يرتقى إلا
 بالسلايم))^(٣) ، كما تحدث الزهري عن حصن طشكر بقوله:
 ((... ، وفيه أعاجيب وأعجب ما فيه الثقب الذي بالحافة الشرقية
 منه ، وذلك أن هذا الثقب لا يبلغه أحد من أعلاه ولا من أسفله ،
 فإذا هبت الريح الشرقية فيه خرج منه بخار أشد بياضاً من الثلج ،
 وإذا هبت الريح الشرقية خرج منه بخار كلهيب النار أحمر ، وإذا
 هبت الريح الجنوبية خرج منه بخار أصفر كشعاع الشمس ، وإذا
 هبت الريح الشمالية خرج منه بخار أزرق كاللازورد ، وإذا سكنت
 الريح لم يخرج منه شيء ، فهذا دأبه دائم الدهر))^(٤) ، وقد زار هذا
 الحصن المنيع ابن الخطيب ووصفه بقوله: ((نعم البسيط المديد ،

(١) أسماء ابن الخطيب حصن أشكر، ينظر: الإحاطة، ٢٠٨/١؛ الكتيبة

الكامنة، ص ٧٧.

(٢) نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.

(٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٠.

(٤) كتاب الجغرافية، ص ٩٦.

والرزق الحديد ، والسعي الحديد ، والصيد القديد ، تركب الجداول
فحصها ، ويأبى الكمال نقصها ، ويلازم ظل الخصب شخصها ،
مسرح البهائم ، ومعذن الرعي الدائم))^(١).

٩- طيبالة^(٢) قال ابن الأبار: من عمل بسطة^(٣).

١٠- قولية ، وتلفظ أيضاً كولية ، من عمل بسطة^(٤) ، قال
الحميري: ((من بسطة إلى قوليه وهي آخر حوز جيان وأول أحواز
تدمير))^(٥) ، وقال المقرئ: إنه حصن من عمل بسطة^(٦).

١١- الكحل وهو جبل من عمل بسطة ، قال عنه القزويني:
((وبناحية بسطة جبل يعرف بجبل الكحل ، إذا كان أول الشهر برز
من نفس الجبل كحل أسود ، ولا يزال كذلك إلى منتصف الشهر ،
فإذا زاد على النصف نقص الكحل ، ولا يزال يرجع إلى آخر
الشهر))^(٧) ، وقال عنه الحميري: ((وبها-أي بسطة- جبل يعرف

(١) خطرة الطيف، ص ٨٤ ؛ معيار الاختيار، ص ١١٠.

(٢) أسماها الإدريسي طوجالة وقال إنها من إقليم بجانة، ينظر: نزهة
المشتاق، ٥٣٧/٢.

(٣) التكملة، ٢٠٧/٢ ؛ ينظر أيضاً: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة،
٦٩٤/١.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ٩/٤ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٨٧/٢ ؛ ابن
عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٩٣/٢.

(٥) الروض المعطار، ص ١١٣.

(٦) نفع الطيب، ٦٦/٤.

(٧) آثار البلاد، ص ٥١٢.

بجبل الكحل ، لا يزال ينشر منه كحل أسود يزيد بزيادة القمر وينقص بنقصانه ، لم يزل على ذلك من قديم الدهر^(١) ، أما شيخ الربوة فأسماه معدن الكحل إذ قال: ((وبها -أي بسطة- معدن الكحل الإثمد وهو يزيد مع زيادة القمر وينقص مع نقصانه))^(٢).
 ١٢- مدرش ، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة^(٣).

ثانياً: نشاطها الاقتصادي

اشتهرت مدينة بسطة بوفرة المياه في أراضيها^(٤) ، إذ تقع في أعماق وادٍ منخفض^(٥) ، وقد أشار الحميري إلى ذلك بقوله: ((وبسطة بركة تعرف بالهوتة^(٦) لا يدرك لها قعر وماؤها على قامة من شفيرها...))^(٧) ، في حين أشار القزويني إلى ذلك بقوله: ((بها بركة تعرف بالهوتة ، فيها ما بين وجه الماء إلى الأرض نحو قامة ، لا

(١) الروض المعطار، ص ١١٣ ؛ ينظر أيضاً : مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٦٧.

(٢) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

(٣) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

(٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٨١/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١١٣.

(٥) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.

(٦) الهوتة هو ما انخفض من الأرض واطمأن، ينظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٤/١٣ (مادة هوت).

(٧) الروض المعطار، ص ١١٣.

يعرف لهذه البركة قعر أصلاً^(١) ، كما أشار ابن الخطيب إلى كثرة مياه العيون فيها بقوله: ((بسطة حرسها الله ، وما بسطة محل خصيب ، وبلدة لها من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام))^(٢) ، وقد تغنى الشعراء بوفرة مائها ونظارتها بقوله:

دار مشى الإتيان في تنجيدها

حتى تناسب روضها وبنائها

مرقوقة الجنبات ذات قرارة

يمتد قدام العيون فضاؤها

ما زال يضحك دائماً نوارها

في وجه ساحته ويلعب ماؤها^(٣)

إن وفرة المياه في المدينة وبسيطها ساعد على قيام الزراعة ، وقد أشار الحميري إلى ذلك بقوله: ((... ، وهي مشهورة بالمياه والبساتين...))^(٤) ، ومما شجع على ذلك خصوبة تربتها ، فقد ذكر الإدريسي أن المنطقة ((فيما بين جيان وبسطة ووادي آش لها خصب

(١) آثار البلاد، ص ٥١٢.

(٢) خطرة الطيف، ص ٣٧ ؛ ريحانة الكتاب، ٢/٢٥١.

(٣) المقري، نفع الطيب، ٦/٤٤٧ ولم يشر المقري إلى اسم قائل الأبيات في وصف بسطة واكتفى بالقول: ولله درّ القائل.

(٤) الروض المعطار، ص ١١٣.

وغلل نافعة كثيرة...))^(١) ، كما تحدث ابن غالب عن خصوصيتها بقوله: ((... ، مدينة بسطة وهي كثيرة الخيرات مخصوصة بكثرة الثمرات ،...))^(٢) ، كما وصف ابن الخطيب أرضها وخيراتها بقوله: ((ولها الفحص الذي يسافر فيه الطرف سعياً ، ولا تعدم السائمة به رياً ولا رعياً ، ولله در القائل:

الجانى الدهر الى عالم

يؤخذ منه العلم والدين

في بلدة عوذت نفسي بها

إذ في اسمها طه وياسين))^(٣)

أما المقري فقد وصف طيب تربتها وكثرة خيراتها بقوله: ((محل خصيب ، ومنزل رحيب ، وكفاها مسجد الجنة دليلاً على البركة وباب المسك دليلاً على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هي بحر الطعام وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام))^(٤).

كما أشار مؤلف مجهول إلى خيراتها الكثيرة الدالة على ازدهار الزراعة فيها بقوله: ((وهي مدينة متوسطة كثيرة الخيرات والبركات

(١) نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢ ؛ ينظر أيضاً : المياح، أوربا في كتب البلدانين العرب المسلمين، ١٥٩/١.

(٢) فرحة الأنفس، ص ١٥.

(٣) معيار الاختيار، ص ١٠٩ ؛ خطرة الطيف، ص ٨٤ ؛ ريحانة الكتاب، ٢٩٣/٢

إلا أنه هنا قدم البيت الثاني على الأول.

(٤) نضح الطيب، ٤٤٦/٦.

والزرع والضرع،...))^(١)، وقد وصف عنان حدائق وأشجار مدينة بسطة الجميلة بقوله: وتوجد في خارج بسطة الحدائق الغناء مترامية الأطراف، حتى تصل إلى الجبال، ومعظم بقاعها الخارجية يغص بأشجار الزيتون، ويخرج منها طريق طويل تحف به الأشجار الباسقة وهو طريق غرناطة^(٢).

ويبدو أن كثرة الزروع والبساتين والأشجار ووفرة المياه والعيون وانصبابها فضلاً عن الجبال المحيطة بها حول المنطقة إلى متنزه فاضت في وصفه والتغني به قرائح الكتاب والشعراء، فقد وصفها الشاعر الحجاري^(٣) بقوله:

بسطة مما آتاه الله في الحسن بسطة

لها حارج يأخذ بالأعين والأنفس^(٤)

(١) تاريخ الأندلس، ص ١٣٧.

(٢) الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن إبراهيم الحجاري من أهل وادي الحجارة كان أديباً شاعراً له كتاب المسهب في فضائل الأندلس، وكانت وفاته سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢/٣٥ - ٣٦؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣/٣٢٨ - ٣٣٠؛ المقري، نفع الطيب، ٢/٣٢٩.

(٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢/٧٧.

وتغنى بها الشاعر شعبان الغزي^(١) بقوله:

سَقَى اللهُ صَوْبَ الْغَيْثِ أَكْنَافَ بَسْطَةِ

فَفِيهَا انْبِسَاطُ النَّفْسِ وَالْعَيْنِ وَالْقَلْبِ^(٢)

كما وصفها الأديب أبو الحسن علي بن محمد بن شفيع^(٣) شاعر بسطة بقوله: ((لو طُبعت على الزهد لحملي حُسن بلدي على المجون والعشق والراحات))^(٤).

وقد أسهب ابن الخطيب في وصفها في منشوراته ، ويأتي أهمية ذلك كونه تردد عليها كثيراً ، ومن قوله فيها: ((بسطة بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب ، دوحها متهدل ، وطيب هوائها غير متبدل ،... ، عمت أرضها السقيا فلا تحلف ، وشملتها البركة يختص الله من يشاء ويزلف ، يتخلل مدينتها الجدول المتدافع ، والناقع للغلل النافع ، ثياب أهلها بالعبير تتأرجح ، وحوورها تتجلى وتبرج وولدانها في شط أنهارها المتعددة تتفرج ،...))^(٥).

(١) هو شعبان بن كوجبا من غز الموصل وفد على الخليفة الموحي يعقوب المنصور ومدحه، فقريه المنصور وولاه على مدينة بسطة، ينظر: المقري، نضح الطيب، ١٣٣/٣.

(٢) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٧٧/٢.

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن شفيع البسطي أديب وشاعر، ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٧٩/٢.

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص ١١٣.

(٥) معيار الاختيار، ص ١٠٩ ؛ خطرة الطيف، ص ٨٤.

كما وصفها في قطعة نثرية له بعد زيارته لها بقوله: ((بسطة حرسها الله ، وما بسطه ، محل خصيب ، وبلدة لها من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة ، بتعدد أيام العام ، ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام ، يا لها من عقيلة ، صفحتها صقيلة ، وخريدة محاسنها فريدة ، وعشيقه نزعاتها رشيقه ، لبست حلّة الديباج الموشى ، مفضضة بلجين الضحى ، مذهبة بنضار العشي ، وسفرت عن المنظر البهي ، وتبسمت عن الشنب الشهي ، وتباهت بحصونها مباهاة الشجرة الشماء بغصونها ، فوقع النفير ، وتسابق إلى لقائنا الجم الغفير ، مثل الفرسان صفاء ، وانتشر الرحل جناحا ملتفا ، واختلط الولدان بالولائد ، والتماثم بالرثد ، في حفل سلب النها ، وجمع البدر والسها ، والضراغم والمها ، وألف بين القاني والفاقع ، وسد بالمحاجر كؤوس البراقع ، فلما أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذي يشفى من الكمد... رمت إلى عرض الفخر بالسهم المصيب ، وأخذت من اقتسام الفضل بأوفى نصيب ، وكفاها بمسجد الجنة دليلا على البركة ، وبياب المسك عنوانا على الطيب ...))^(١).

ومن أوصافها وخيراتها ما جرى على لسان شاعرها أبو الحسن القلصادي^(٢) إذ قال فيها: ((سقى الله تعالى أرجاءها المشرقة ،

(١) ريحانة الكتاب، ٢٥١/٢ - ٢٥٢.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد البسطي القلصادي أحد شعراء مدينة بسطة وله باع في مختلف العلوم تولى سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، وسيأتي، ينظر: المقرئ، نفع الطيب، ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٤.

وأغصانها المورقة ، شأبيب الإحسان ، ومهدها بالهدنة والأمان ، دار
تجنجل منها الدور ، وتتقاصر عنها القصور ، وتقر لها بالقصور ، مع ما
حوته من المحاسن والفضائل ، من صحة أجسام أهلها وما طبعوا
عليه من كرم الشمائل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها
باب الفرج ، ثم قال: ولله در القائل:

دار مشى الإتقان في تنجيدها

حتى تناسب روضها وبنائها

مرقوقة الجنبات ذات قرارة

يمتد قدام العيون فضاؤها

ما زال يضحك دائماً نوارها

في وجهه ساحتها ويلعب ماؤها^(١)

كما تغنى بجمال مدينة بسطة وحسن طبيعتها الشاعر أبو عبد
الله بن الأزرق^(٢) إذ قال:

في بسطة حيث الأباطح مشرقه

أضحت جفوني بالمحاسن مغلته

(١) المقرئ، نفع الطيب، ٤٤٦/٦ - ٤٤٧.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق من أهل غرناطة
صاحب كتاب بدائع السلك في طبائع الملك، وتوفي سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م،
ينظر: العلمي، الأنس الجليل، ٣٦٠/٢؛ المقرئ، نفع الطيب، ٦٩٩/٢؛ أزهار
الرياض، ٣١٧/٣ - ٣٢٣.

وله أيضاً في بسطة:

قل لمن رام النوى عن وطن

قولة ليس بها من حرج

فرج الهم بسكنى بسطة

إن في بسطة باب الفرج^(١)

وتحت مؤلف مجهول عن بعض عجائبها التي كانت مثار الدهشة لزوارها منها قوله: إن في ((ناحية بسطة في جبل هناك غار على شفير خندق ، وفيه رجل ميت لم تغيره الأزمنة ، ولم يدر له خبر ، ولا أعلم له أمر ، كذلك ألفاه الناس قديماً يحدث به الآباء الأبناء ، وذكر أن بعض قطاع السبيل أووا إلى ذلك الغار في يوم مطر ، فأخذ أحدهم ثوباً من أكفان ذلك الميت ، فنزلت عليهم صاعقة ، فأحرقته في تلك الساعة ، فمات ، وكذلك أكثر أصحابه الذين واسوه على ذلك ، وبهذا الغار نقطة ماء تقع في أعلاه في حفرة صغيرة ، فهي لا تفيض بدوام نزولها ، أعني النقطة فيها ، وإن شرب منها عدد كثير لم تنقص))^(٢) ، وعلى الرغم من الطابع الأسطوري لهذه الحكاية فإنها تعكس تفنن أهالي مدينة بسطة في الترويج لمدينتهم من أجل جذب السياح والزوار إليهم.

أما أهم المحاصيل الزراعية التي أشارت إليها المصادر فهي أشجار

(١) المقرئ، نضح الطيب، ٤٤٧/٦.

(٢) تاريخ الأندلس، ص ٦٧.

التوت والزيتون التي قال عنها الحميري: ((... ، وشجر التوت فيها كثير وعلى قدر ذلك غلة الحرير والزيتون وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة ، وأرضها عذاة كثيرة الربيع))^(١) ، كما أشارت المصادر إلى كثرة نباتات الزعفران في أرض بسطة واشتهارها بإنتاجه ، فذكر ابن فضل الله العمري إلى أن مدينة بسطة ((اختصت بالزعفران ، وبها منه ما يكفي أهل الملة الإسلامية بالأندلس على كثرة ما يستعملونه))^(٢) ، كما وصفها ابن الخطيب بأنها منابت الزعفران بقوله: ((وكان ملتقى الحران منابت الزعفران بسطة حرسها الله...))^(٣) ، ووصفها أحد الشعراء بقوله:

وَأَيْنَ بَسْطَةَ دَارِ الزُّعْفَرَانِ فَهَلْ

رَأَى شَبِيهَا لَهَا فِي الْحُسْنِ إِنْسَانٌ^(٤)

والزعفران نبات بصلي معمر له استخدامات متعددة تدر فوائد اقتصادية جمة حتى قرنوه بالذهب فقالوا: الأصفران هما الذهب والزعفران^(٥) ، فهو يدخل في صناعة الأصباغ ولاسيما الثياب^(٦) ،

(١) الروض المعطار، ص ١٣٣.

(٢) مسالك الأبصار، ٢٣٨/٤؛ ينظر أيضاً: القلقشندي، صبح الأعشى، ٢١٤/٥.

(٣) خطرة الطيف، ص ٣٧؛ ريحانة الكتاب، ٢٥١/٢.

(٤) الخفاجي، ريحانة الالبا، ص ٣٧٣.

(٥) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٤٢٥/١ (مادة زعفران).

(٦) ابن سيده، المخصص، ٢٧٤/٣؛ المحكم والمحيط الأعظم، ٥٢٢/٥.

فيقال زعفران الثوب أي صبغته^(١) ، كما يدخل في صناعة العطور والطيب^(٢) ، فيقال: تزعفر الرجل أي تطيب^(٣).

إلا أن أوسع استخداماته هي الطبية كعلاج للعديد من الأمراض ، وقد أشارت المصادر إلى أهميته الطبية نذكر منها:

١- أسهب الرازي في ذكر فوائده الطبية ، منها قوله: ((قوته منضجة ملينة قابضة يدر البول ويحسن اللون ويذهب بالخمار متى شرب بمبيخنج وينع الرطوبات أن تسيل إلى العين متى لطخت به أو اكتحل منه بكن امرأة ، وقد يتنفع به أيضاً متى خلط بالأدوية المشروبة للأوجاع الباطنة والفرزجات والضمادات المستعملة لأوجاع الأرحام والمقعدة ، ويحرك شهوة الجماع ويسكن الحمرة متى لطخ عليها وينفع من الأورام الحارة العارضة للأذن ... ، وقوة دهنه مسخنة منومة ولذلك كثيراً ما يوافق المبرسمين إذا دهن به أو شم أو دهن به المنخران وينفع الأورام وينقي القروح ، ويوافق صلابة الرحم وانضمامها ويحل القروح الخبيثة العارضة ... ، ويصلح للزرقمة متى اكتحل به مع الماء وللذين لا يقدر أن يقبلوا حر الشمس ... ، الزعفران يفرح القلب حتى أنه يقتل إن أكثر منه والشربة القاتلة ثلاثه دراهم ... ، إنه مفتاح لسدد الكبد ويقوي الأحشاء شرب أو تضمده به غير أنه يملأ الرأس ويذهب

(١) ابن سيده، المخصص، ٢٧٤/٣.

(٢) الأزهرى، تهذيب اللغة، ٢٢٠/٣ ؛ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، (مادة زعفران).

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ٣٠/١١ (مادة زعفران).

غشاوة العين ويردع رطوبتها إذا طلي به عليها مع ألبان النساء ويقوي شهوة الجماع ويحلل الأورام وفيه شيء من القوة القابضة شرب أو وضع من ظاهر مع لطافة ، ويحلل ويقوي الأعضاء الباطنة والأعضاء الضعيفة بما فيه من القوة القابضة متى شرب أو وضع عليها من ظاهر ويفتح سد الكبد والعروق باعتدال المكان ما فيه من الحرارة والمرارة إلا أنه يملأ الدماغ ... ، الزعفران جيد للطحال ...^(١).

٢- ذكر الحميري أن الزعفران ((يقوي المعدة ويهضم الطعام ويفتح سد العروق والكبد ويدر البول ... ، ويحرك شهوة الجماع إلا أن يكثر منه ، فإن أكثر أفسد شهوة الجماع ، وإذا اكتحل به مع لبن أم جارية قطع سيلان المواد من العين وقوى حدقتها ، وإن صب ماء طبيخه على الرأس نفع من السهر الحادث من البلغم))^(٢).

ومن هنا فإن استخداماته في مفاصل الحياة المهمة كالطيب والملابس والأدوية جعل منه سعة رائجة ذات مردودات اقتصادية مهمة على أهالي مدينة بسطة التي تركزت فيها زراعته على نطاق واسع.

كما تحدثت المصادر عن وجود المعادن في مدينة بسطة لاسيما معدن الكحل الأثمد^(٣) الذي يزيد وينقص مع زيادة القمر

(١) الحاوي في الطب، ١٨٢/٦ - ١٨٣؛ ينظر أيضاً: ابن البيطار، الجامع لمصرات الأدوية والأغذية، ٤٦٧/٢ - ٤٦٩.

(٢) شمس العلوم، ٢٧٩٦/٥.

(٣) الأثمد هو حجر الكحل وهو أسود إلى حمرة، وهو معدن يوجد في أصبهان والمغرب، والذي في المغرب أجود لصلابته، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ٤٦٨/٧ (مادة ثمد).

ونقصانه^(١) ، كما يوجد فيها حجر الازورد^(٢) الطيب ، إذ علق مؤلف مجهول على ذلك بقوله: ((ويوجد اللازورد الطيب بالأندلس بناحية لورقة من كورة تدمير ، ويوجد أيضاً بالمرية^(٣) وبسطة وبغرناطة ،...))^(٤) ، وقد أشار الزهري إلى أن هذا المعدن يُصدر إلى بلاد المغرب^(٥).

أما بالنسبة إلى الصناعة فقد تحدثت المصادر عن اشتهار مدينة بسطة بالعديد منها ولعل ذلك مرتبط بوفرة المعادن والمحاصيل الزراعية الداخلة فيها ، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله: ((... ، مدينة بسطة مدينة متوسطة المقدار حسنة الموضع عامرة أهلة لها أسوار حصينة وسوق نظيفة وديار حسنة البناء رائقة المغنى وبها تجارات وفعلة لضروب من الصناعات ،...))^(٦).

كما اشتهرت مدينة بسطة بصناعة الطرز^(٧) ، وهذا ما أشار إليه

(١) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٢١.

(٢) اللازورد وهو حجر أزرق اللون معدني يتولد في بعض الجبال يتخذ للحلي وله بعض المنافع الطبية، ينظر: ابن معصوم، الطراز الأول، ٢٤٢/٦؛ أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١٩٨٦/٣ (مادة لازورد).

(٣) مدينة أندلسية على البحر المتوسط بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥م، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣٧.

(٤) تاريخ الأندلس، ص ٥٢.

(٥) كتاب الجغرافية، ص ٩٦.

(٦) نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢ ؛ ينظر أيضاً: الحميري، الروض المعطار، ص ١١٣.

(٧) الطرز من الطراز وهو الثوب الحسن المعلم، ينظر: الفراهيدي، العين، ٣٥٦/٧ (مادة طرز).

ابن غالب بالقول: ((...، وفيها الطرز الشريفة))^(١)، كما تحث الحميري عن هذه الصناعة بالقول: ((...، وبها كانت طرز الوطاء)^(٢) البسطي من الديباج الذي لا يعلم له نظير...))^(٣)، ووصف المقرئ الثياب المصنوعة فيها بأنها من العجائب إذ قال: ((...، ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يُعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة...))^(٤)، كما اشتهرت بسطة أيضاً بصناعة الخزف والكتان^(٥)، وأضاف ياقوت أنه يُنسب إليها المصلبات البسطية^(٦)، والمصلبات هو نوع من الثياب سمي بذلك لأنهم اتخذوا فيه نقش كالصليب^(٧)، ولعل هذا النوع من الثياب كان يُصنع من قبل النصارى في مدينة بسطة، لأن المسلمين يكرهون استخدامه، لما روي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت تكره الثياب المصلبة^(٨).

كما تحدثت بعض المصادر عن أوصاف المدينة، فقال الإدريسي: ((مدينة بسطة مدينة متوسطة المقدار حسنة الموضع عامرة أهلة لها

(١) فرحة الأنفس، ص ١٥.

(٢) الوطاء هو الفراش اللين، ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص ٥٤٤.

(٣) الروض المعطار، ص ١١٣.

(٤) نضح الطيب، ٢٠١/١.

(٥) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.

(٦) الأندلس من معجم البلدان، ص ٧٥.

(٧) الزبيدي، تاج العروس، ٢٠٥/٣ (مادة صلب).

(٨) معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ٧٦/١١؛ الصنعائي، المصنف، ٥٠٦/٨.

أسوار حصينة وسوق نظيفة وديار حسنة البناء رائقة المغنى...))^(١) ،
وقال القزويني: إنها ((مدينة بالأندلس بقرب جيان ، كثيرة
الخيرات...))^(٢) ، ووصفها الحميري بالقول: ((وهي متوسطة المقدار
حسنة الوضع عامرة أهلة حصينة ذات أسوار...))^(٣).

وأما الآن فهي مدينة صغيرة من أعمال ولاية غرناطة يقطنها
حوالي خمسين ألف نسمة ، يشقها شارع طويل على ضفتيه المنازل
البيضاء ذات الطابقين والثلاثة ، ولا يزال الطابع الأندلسي واضحاً
في بعض مظاهرها ، فالكنيسة الرئيسة فيها المسماة سان ماسمو San
Maximo تحتل موقع المسجد الجامع القديم ، وكان هذا المسجد قد
بُني على موقع كنيسة قوطية ، وكذلك كنيستها الأخرى المسماة
Annoncia de Na Senoia كانت مسجداً حوّلته الملكان
الكاثوليكيان إلى كنيسة^(٤).

ومن الآثار الأخرى في مدينة بسطة بقية من أسوارها القديمة ،
كذلك وجد بها حمامان عربيان أحدهما قديم ، والآخر ذو أربعة
عقود يرجع إلى العصر الغرناطي المتأخر^(٥).

(١) نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.

(٢) آثار البلاد، ص ٥١٢.

(٣) الروض المعطار، ص ١١٣.

(٤) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.

(٥) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.

التاريخ السياسي لمدينة بسطة حتى نهاية عصر الخلافة

أولاً: فتح مدينة بسطة واستقرار المسلمين فيها

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح المسلمين مدينة بسطة أو تاريخ ذلك ، إلا أنه على ما يبدو أنها فتحت أثناء فتح المسلمين لمدينة جيان لقربها منها ومن توابعها ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين لودزيق في معركة وادي لكة^(١) Rio Cuadalete في شوال من سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م اتجه إلى إشبيلية Sevilla فتمكن من فتحها ثم اتجه إلى مدينة إستجة^(٢) Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق

(١) مدينة أندلسية من كورة شنونة، ينظر: الحميري، الروض المعطار،

ص ٥١١.

(٢) مدينة أندلسية قديمة تقع بين القبلة والغرب من قرطبة، ينظر: ابن غالب،

فرحة الأنفس، ص ٢٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣.

التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة Cordoba^(١) والبييرة ومالقة Malaga^(٢) وتدمير Tudmir^(٣).

أما بالنسبة إلى كورة جيان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم^(٤)، فقد سلكه طارق بن زياد إلى طليطلة، فذكر المقرئ أن طارق بن زياد بعد بعثه بعضاً من جيوشه إلى مالقة وقرطبة والبييرة ((سار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة...))^(٥)، وهذا يدل على أن كورة جيان وتوابعها (ومنها مدينة بسطة) قد فتحت على يد طارق بن زياد وهو في سيره إلى مدينة طليطلة.

(١) وهي قاعدة وعاصمة الأندلس لحقبة طويلة تقع على نهر الوادي الكبير، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٦- ٢٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٦- ٤٥٧.

(٢) وهي كورة كبيرة في الأندلس تقع بين القبلة والشرق من قرطبة، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٤٠.

(٣) لمزيد من التفاصيل ينظر: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١- ١٩.

(٤) ويسمى أيضاً المحجة العظمى أو السكة العظمى، وهو الطريق الذي يبدأ من قانس وينتهي بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة، وأشار إليه المقرئ بقوله: ((وياب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة، وياب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قانس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة ماراً في الأرض الكبيرة))،
نضح الطيب، ٤٦٥/١.

(٥) نضح الطيب، ٢٦١/١.

أما عن تاريخ فتحها فيمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة ٧١٠هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقرئ: ((كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمه ثمانية أيام ...))^(١) ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها^(٢) ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة ٧١١هـ/٧١١م^(٣) ، فهذا يعني أن دخول جيان ومنها مدينة بسطة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذو الحجة من سنة ٧١٠هـ/٧١٠م.

ليس لدينا معلومات كافية عن القبائل التي سكنت مدينة بسطة عند فتح المدينة ، ولكن بشكل عام فإن المصادر أشارت إلى عدد القبائل العربية التي استقرت فيها بعد الفتح الإسلامي ، ولعل في مقدمة القبائل التي استوطنت في بسطة قبيلة يحصب^(٤) العربية إذ استقرت أعداد منهم فيها بعد الفتح الإسلامي^(٥) ، وقد أشار إلى ذلك القاضي عياض بن موسى اليحصبي بقوله: ((استقر أجدادنا

(١) نضح الطيب، ١/٢٥٩؛ ينظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٨.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٩ - ١٠؛ المقرئ، نضح الطيب، ٣/١٢.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

(٤) وهو يحصب بن مالك بن زيد ثوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شدد بن زرعة بن سبأ، ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٣٥، ٤٣٧.

(٥) ابن الأبار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، ص ٢٩٤؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٢٩.

في القدم بالأندلس بجهة بسطة^(١)، كما استقر قسماً منهم في القلعة الملكية التي أصبحت تدعى بقلعة يحصب^(٢)، كذلك مجموعات أخرى من هذه القبيلة سكنت وادي بجانة قرب المرية^(٣). وقد أشار ابن حزم إلى أن دار طيء^(٤) بالأندلس بسطة وتاجلة وغيليار^{(٥)(٦)}، وعلى الرغم من أن بعض أفراد هذه القبيلة عاشوا في أماكن أخرى^(٧)، إلا أن موطنهم الرئيسي كان في مدينة بسطة وأعمالها^(٨).

-
- (١) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨٨/٤؛ ينظر أيضاً: ابن الأبار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، ص ٢٩٤؛ التكملة، ١٥٩/٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٨٥/٣؛ النباهي، الرقبة العليا، ص ١٠١؛ المقرئ، أزهار الرياض، ٢٨/١.
- (٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٦؛ العنزي، ترصيع الأخبار، ص ٩٢؛ المقرئ، فتح الطيب، ٢٩٧/١؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٢٩.
- (٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٣٦؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٢٩.
- (٤) هو طيء بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٩٨.
- (٥) يشير طه إلى أن غيليار ربما هي Guajar الواقعة الآن في محافظة غرناطة، الفتح والاستقرار، ص ٢٤٩.
- (٦) جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٤.
- (٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢٩؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٠٢؛ ابن الأبار، الحلة السيرا، ٦٨/١؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٦٢.
- (٨) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٤؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٨٤/٢؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٦٣.

بالإضافة إلى كل من يحصب وطيء فهناك مجموعات من قبائل عربية أخرى استوطنت أيضاً في مدينة بسطة وأعمالها مثل الأزدي^(١) وهؤلاء جميعاً من القبائل اليمانية التي عبرت إلى الأندلس ولعل نزولهم في مدينة بسطة كان بحكم هذه القرابة.

كما أشارت بعض المصادر إلى نزول مجموعات من القبائل القيسية العدنانية في مدينة بسطة مثل غافق الذين ينتمون إلى عك بن عدنان، وقد وصفهم ابن سعيد بنو اليسع من غافق بأنهم من أعيان قولية من عمل بسطة^(٢)، كذلك بنو كنانة^(٣) إذ ذكرت بعض المصادر استيطان مجموعات منها في قيحاطة من عمل مدينة بسطة^(٤).

ومما يلاحظ هنا أن ما ورد من إشارات عن سكان مدينة بسطة أغلبه عن القبائل العربية التي استوطنتها، والراجح أن القبائل اليمانية التي استوطنت مدينة بسطة وأعمالها كانوا ضمن الفاتحين الأوائل (البلديين)^(٥) الذين استقروا على طول الطرق التي مرّ بها

(١) السلفي، معجم السفر، ص ٤٣٢؛ أخبار وتراجم أندلسية، ص ١٣٧.

(٢) المغرب في حلى المغرب، ٨٧/٢؛ ينظر أيضاً: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٠٩/٣؛ المقري، نضح الطيب، ٦٣٩/١.

(٣) وهو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان، ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١١.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ٨/٤؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ٥٥٨/١.

(٥) البلديون هم الفاتحون الأوائل الذين تغلبوا على دولة القوط الغربيين واستقروا مباشرة في الأراضي المفتوحة حسب رغباتهم، ينظر: السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٦٢.

كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير^(١) ، أما القيسية التي استوطنت المنطقة فالراجح أنهم من الذين دخلوا الأندلس ضمن طالعة بلج القشيري القيسي^(٢) ثم قام الوالي أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى^(٣) بتوزيعهم على مناطق الأندلس فكان منهم بكورة بيجان وأعمالها^(٤).

ثانياً: مدينة بسطة في عصري الإمارة والخلافة

ويبدو أن مدينة بسطة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث التي الكبيرة التي عانت منها الأندلس في عصر الولاة وعصر الإمارة إلى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٧٥-٣٠٠هـ/٢٨٨-٩١٢م) ، إذ شهد عهده العديد من التمردات والفتن الداخلية ، وقد وصف ابن الأثير عهده بقوله: ((وفي أيامه امتلأت

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٠٠.

(٢) هو بلج بن بشر القشيري تولى الأندلس سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وكانت ولايته

أقل من سنة، ينظر: ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٨٣.

(٣) هو أبو الخطار الحسام بن ضرار بن سلامان الكلبى ولي الأندلس بعد قتل

عبد الملك بن قطن ومبايعة أهلها ثعلبة بن سلامة، وكانت توليته من قبل

والي إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م وعزل سنة

١٢٨هـ/٧٤٥م، ثم قتل في الحرب التي جرت بين القيسية واليمانية في موقعة

شقندة سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م. ينظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٧٨.١٧٧؛

ابن الأبار، النحلة السيرة، ١/٦٦٦.

(٤) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٠٣-٤٠٤.

الأندلس بالفتن ، وصار في كل جهة متغلب ولم تزل كذلك طول ولايته^(١).

ويبدو أن التمردات قد استفحلت في معظم مناطق الأندلس ولم تبق قاصرة على المناطق الجبلية ، بل تجاوزها إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية^(٢) وبطليوس Badajoz^(٣) وجيان (بما فيها مدينة بسطة) ولورقة ومرسية وغيرها ، ومن أشهر حركات التمرد التي شهدتها المنطقة هي حركة عمر بن حفصون^(٤) وكانت بدايتها من حصن ببشتر Bobastro في إقليم رية Rejio والتف حوله جماعة من المولدون مستغلاً حالة الانفلات الأمني الذي ساد في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢ م) فاستولى على مناطق واسعة من كورة البيرة وشذونة Sidonia وجيان ، وأشار ابن الخطيب إلى أن ابن حفصون ((اتسع نظره حتى تملك كورة رية ،

(١) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٠٩.

(٢) مدينة أندلسية قديمة تبعد عن قرطبة ثمانين ميلاً، ينظر: الحميري،

الروض المعطار، ص ٥٨؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٧٤-١٧٥.

(٣) مدينة تقع غرب الأندلس تبعد عن ماردة أربعين ميلاً، ينظر: الحميري،

الروض المعطار، ص ٩٣.

(٤) عمر بن حفصون كان من المولدين ثار بالأندلس بإقليم رية سنة

٢٦٧هـ/٨٨٠ م واستمرت ثورته حتى عهد الناصر إذ تمكن من القضاء عليه،

وكانت وفاته سنة ٣٠٥هـ/٩١٧ م، ينظر: ابن حيان، المقتبس، (للحقبية

٢٧٥ - ٣٠٠هـ/٨٨٨ - ٩١٢م)، ٧٢ - ٧٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠٤/٢

وما بعدها؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٣٢/٢ - ٣٥.

والخضراء ، وإلبيرة ، إلى بسطة ، وأبدة ، وبياسة ، وقبرة ، إلى حصن بلي المطل على قرطبة ، وأشرق الخلافة بريقها ...))^(١) ، ولما كان أمر ابن حفصون ظهر سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠ م فهذا يعني أن مدينة بسطة أصبحت ضمن أملاكه بعد هذا التاريخ ، وبسبب تعصبه للمولدين على العرب ، أدى إلى هياج العرب في المنطقة ، فانضم النصارى والمولدون إلى ابن حفصون ، وهكذا أضرمت نار الفتنة بالأندلس ، وأخذ ابن حفصون في التشديد على العرب من مناطق حرباً وتهجيراً ، عندها وحد العرب صفوفهم تحت زعامة رجلاً يدعى سوار بن حمدون القيسي^(٢) الذي وقف بوجه ابن حفصون ، وقد أشار إلى ذلك ابن الخطيب بقوله: ((ولولا أن الله منّ على العرب بسوار ونصره لما أبقى العجم والمولدون منهم أحداً))^(٣).

ثم إن سوار بعد أن جمع العرب تحت قيادته سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩ م قام بمقارعة عمر بن حفصون ومن معه من المولدين واستطاع أن يهزمه ، وفي ذلك يقول ابن حيان عن سوار: ((أنه لما أذل المولدين من أهل حاضرة البيرة وأثنخن فيهم ، لاذوا بعمر بن حفصون ، صاحب دعوتهم ، وخلعوا طاعة الأمير عبد الله ، واستعانوا عمر فجاءهم بجيشه وأدخلوه حاضرة البيرة ، فحشدهم ومن ينضوي

(١) الإحاطة، ٢٦/٤.

(٢) ينتسب سوار بن حمدون إلى بني محارب بن خصفة بن قيس عيلان، ينظر:

ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٦٠.

(٣) الإحاطة، ٢٢٦/٤.

إليهم من أهل حصونهم وناهض سواراً في جماعتهم ، وكان سوار استمسك برجالات العرب من الثلاث كور: كورة البيرة ، وجيان ، وربة ، فلما وافى عليه عمر بن حفصون بجمعه ناشيهم الحرب فلاقوه بجمهورهم فاشتد القتال بينهم واستحرّ الجلال ، فجال المولدون جولة صعبة جرح فيها عميدهم ، ابن حفصون ، جراحاً مثنخة ، وأصيب جماعة من فرسانهم وانقلب منهزماً على عقبه ، ودارت الدائرة عليه^(١).

كما أشار إلى هذه الواقعة ابن عذاري بقوله: ((وكانت بين سوار هذا وابن حفصون ملاقة انقلب فيها ابن حفصون مهزوماً ، وتولى ملوماً مذموماً ، قد أثقل بالجراح ، وقتل قواده في ذلك الكفاح))^(٢).
وبعد هذا الانتصار الذي حققه سوار بن حمدون القيسي على ابن حفصون وفي محاولة من الأمير عبد الله بن محمد لإرضائه فقد عزل والي كورة البيرة جعد بن عبد الغافر وولى مكانه عمر بن عبد الله بن خالد مشتركاً مع سوار القيسي ، عندها أظهر سوار الطاعة للأمير وخرج بجموعه يقاتل ابن حفصون وأوقع به في موقعة ثانية تعرف بوقعة المدينة تمكن سوار القيسي فيها من هزيمة قوات ابن حفصون وقتل اثني عشر ألفاً من أتباعه^(٣).

(١) المقتبس، للحقبة (للحقبة ٢٧٥ - ٣٠٠هـ / ٨٨٨ - ٩١٢م)، ص ٨٢ - ٨٣ ؛ ينظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٧/٤، ٢٢٧.

(٢) البيان المغرب، ١٣٤/٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، للحقبة (للحقبة ٢٧٥ - ٣٠٠هـ / ٨٨٨ - ٩١٢م)، ص ٨٠؛ ابن الأبار، الحلة السرياء، ١٤٩/١ - ١٥٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٣/٢.

وقد علق ابن الخطيب على وقعة المدينة بين سوار القيسي وابن حفصون بقوله: ((وكانت العرب يتألبون على المولدين ، إلى أن عزل الأمير جعداً عن الكورة إرضاء لسوَّار ، فأظهر عند ذلك الطاعة ، وغزا الحصون الراجعة إلى ابن حفصون فأوقع بهم ، فهاجمهم ، واجتمعت عليه كلمتهم ، فقصدوه وحصلوه بغرناطة في نحو عشرين ألفاً ، وبرز إليهم في عدده القليل من عبيده ، ورجال بيوتات العرب من أهل البيرة ، ورجعوا من جبل الفخَّار على تعبئة ، يريدون الباب الشرقي من غرناطة ، وكادهم لما التحمت الحرب وشبَّ ضرامها ، بما دبَّره من انسلاله في لخمّة من فرسانه ، حتى استدبرهم ، فحمل بشعاره ، فاندعروا وانفضوا ، فتوهم حماتهم أن مدداً جاءهم من ورائهم ، فولّوا منهزمين ، وأعمل سوَّار وأصحابه السيوف فيهم إلى باب البيرة ، فيقال: إن قتلاهم في هذه الوقعة الثانية كانوا اثني عشر ألفاً ، وهي الوقعة المعروفة بوقعة المدينة...))^(١).

وحسب الرواية أعلاه فإن مدينة بسطة قد تحررت من سيطرة ابن حفصون سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩ م وعادت إلى حظيرة إمارة قرطبة ، وقد وصف ابن حيان حالة المناطق التي خضعت لسوار القيسي بعد أن حررها من ابن حفصون بقوله: ((... ، فارتفعت بينهم الحرب ، وهدأت الحال وانبسط كل منهم في قراهم وتطعموا العافية ونجح سوار بما تهيأ له على أعدائه المولدين وأكثر الفخار بنفسه

(١) الإحاطة، ٤/٢٢٦.

وقومه قيس...)»^(١) ، وأشار ابن الأبار إلى أن رئاسة سوار للعرب امتدت إلى قلعة رباح Calatrava^(٢).

إلا أن رئاسة سوار للعرب لاسيما في كورتي البيرة وجيان لم يدم أكثر من عام ، ذلك أن عمر بن حفصون الذي اصطلى بناره بعد هزيمته عهد إلى أحد قواده ويدعى حفص بن المرة بمراقبة تحركات سوار القيسي كي يصيب منه غرة ، فعمل الأخير جهده في ذلك وأعمل الحيلة على سوار حتى أدركه يوماً في قلة من أصحابه فكمّن له ، وسوار لم يشعر بذلك ، فأحرق حفص وأصحابه بسوار وتمكنوا من قتله وأرسلوا برأسه إلى ابن حفصون وذلك سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م^(٣).

ويقتل سوار بن حمدون القيسي دخل على عرب البيرة وجيان من ذلك خوفاً عظيماً على أنفسهم من بطش ابن حفصون ، وقد عبر ابن الأبار عن ذلك بقوله: ((وَلَمَّا قُتِلَ سِوَارُ بِنِ حَمْدُونِ ذَلَّتِ الْعَرَبُ بِمَقْتَلِهِ وَكُلَّ حَدَّهَا بِمَا نَزَلَ فِيهِ...))^(٤) ، وفي محاولة للدفاع عن أنفسهم أمّروا عليهم رجلاً منهم يدعى سليمان بن سعيد بن جودي^(٥) وقد وصفه ابن حيان بقوله: ((... ، فقام بأمر العرب وضمّ

(١) المقتبس، للحقبة (للحقبة ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)، ص ٧٩.

(٢) الرحلة السيرة، ١/١٤٩.

(٣) ابن حيان، المقتبس، للحقبة (للحقبة ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)، ص

٨٣ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٣٤ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٤/٢٢٧ ؛

(٤) الرحلة السيرة، ١/١٥٥.

(٥) هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السُعديّ من هوازن

من جند قنسرين، ابن الأبار، الرحلة السيرة، ١/١٥٤ - ١٥٦.

نشرها إلا أنه لم يسد مكان سوار ولا بلغ مداه في السياسة ، على أنه كان شجاعاً بطلاً وفارساً مجرباً^(١) ، وقال ابن الخطيب: ((كان سعيد بن سليمان صديق سوار ، فغصبت العرب الإمارة به بعده ، وعلقت به ، فقام بأمرها وضمّ نشرها ، وكان شجاعاً بطلاً ، فارساً مجرباً ، قد تصرف مع فروسيته في فنون من العلم ، وتحقق بضروب من الآداب ، فاغتنى أديباً تحريراً ، وشاعراً محسناً...))^(٢).

وقد سجل الأمير عبد الله بن محمد لسعيد بن سليمان بن جودي قيادة عرب المنطقة ومقارعة ابن حفصون إلا أن الأخير تمكن من أسره ولم يطلقه إلا لقاء فدية ، بعدها ثار ابن جودي على الإمارة في قرطبة وخلع الطاعة فأعمل الأمير عبدالله بن محمد الحيلة حتى تمكن من قتله سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م ، وأشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: ((وعارض ابن حفصون بالحرب والحرب ، حتى أغصه بريقه ، وضايقه في سبيله هناك وطريقه ، فرجع ابن حفصون إلى الحيلة فيه والكيد ، إذ عجز عنه بالقوة والأيد ، حتى قبض عليه ، وصار أسيراً لديه ، وأقام عنده ببشتر شهوراً مكبولاً ، إلى أن قبل فيه ابن حفصون مالا جزلاً قبولاً ، فأطلقه من وثاقه ، فجد في خلافه على الأمير عبدالله وشقاقه ، إلى أن مكر به مكرراً ، وقتل في دار عشيقة له يهودية غدراً))^(٣).

(١) المقتبس، للحقبة (للحقبة ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)، ص ٨٣.

(٢) الإحاطة، ٢٣٩/٤ - ٢٤٠.

(٣) البيان المغرب، ١٤٣/٢.

فتولى أمر العرب بعده محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني الذي تمسك بطاعة الأمير عبد الله بن محمد واستمر في محاربة ابن حفصون حتى بداية عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠-٣٥٠ هـ/٩٢١-٩٦١م) الذي تمكن من إخضاع المنطقة وضمها إلى سلطته^(١)، إذ جهز الأمير حملة عسكرية بقيادته سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢م وتمكنت من إخضاع العديد من حصون البيرة وجيان وضبطها، وقد أشار ابن حيان إلى ذلك بقوله: ((...، ثم انتقل منها إلى كورة البيرة، فلما احتلها تداعى أهل حصون بسطة وتاجلة ومربيط والبراجلة والإسناد إلى النزول، ولاذوا بالطاعة وأخلوا حصونهم فأنالهم ما أرادوا، وأحكم أمر الجهة وضبط حصونها بثقافته وأحكم شأنها بجميل نظره))^(٢).

والراجح أن مدن كورتي جيان والبيرة شهدت في عهد عبد الرحمن الثالث الناصر نوعاً من الهدوء بسبب قوة الخليفة الناصر وسطوته فلم تسجل في المنطقة أحداثاً كبيرة لاسيما بعد القضاء على حركة ابن حفصون، وبخصوص مدينة بسطة فقد أشار ابن حيان إلى بعض ولاتها في أيام الناصر، فذكر أنه في سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩م تم تعيين أحمد بن عبد الله بن أبي عبدة والياً عليها^(٣) ثم تم

(١) ابن الأبار، الحلة السيرة، ١/١٥٧، ٢/٢٨٧- ٢٧٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب،

٢/١٣٤؛

(٢) المقتبس (للحقبة ٣٠٠- ٣٣٠ هـ/ ٩١٢- ٩٤١م)، ص ٦٦.

(٣) المقتبس (للحقبة ٣٠٠- ٣٣٠ هـ/ ٩١٢- ٩٤١م)، ص ٢٥٤.

استبداله بعد الرحمن بن يحيى سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠م^(١) ، وعلى الرغم من عدم ذكر المصادر التي بين أيدينا قائمة الولاة لمدينة بسطة في عهد الخلافة إلا أنه يلاحظ من أسماء الولاة أعلاه أنهم من غير العرب ، ولعل ذلك ضمن السياسة التي انتهجها الأمويون منذ أيام عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢ هـ / ٧٥٥-٧٨٨ م) في اصطناع الموالي والإفادة من عونهم في الجيش والإدارة وقد بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر^(٢).

وفي عهد الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩ هـ / ٩٧٦-١٠٠٨ م) أصبحت مدينة بسطة معبراً لحملات المسلمين باتجاه أراضي النصارى ، فقد أشارت بعض المصادر إلى حملة قادها المنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢ هـ / ٩٧٦-١٠٠١ م) إلى مدينة برشلونة Barcelona^(٣) سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م واتخذت الطريق المار من السيرة إلى بسطة إلى لورقة ومنها إلى مرسية فأقام عند الأخيرة ثلاثة وعشرين يوماً ومن ثم توجه إلى برشلونة^(٤).

(١) المقتبس (للحقبه ٣٠٠ - ٣٣٠ هـ / ٩١٢ - ٩٤١ م)، ص ٢٨٥.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٥/١.

(٣) مدينة أندلسية تقع في الشمال الشرقي على البحر المتوسط تبعد عن مدينة طركونة خمسين ميلاً، ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣٤/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٨٦.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٣ ؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ٣١١/٢ ؛ دوزي، المسلمون في الأندلس، ١٢٢/٢.

ولعل سلوكه هذا الطريق كان يقصد به جمع المقاتلين من العرب القاطنين في كور البيرة وجيان وتدمير، ولذا لا نستبعد أن شارك أهالي مدينة بسطة في هذه الحملة التي مرت على مناطقها، أضف إلى ذلك قرب مدينة بسطة من مدينة مرسية التي استقرت فيها القوات الأندلسية قبل التوجه إلى مدينة برشلونة، ولعل هذه المدة كافية لانضمام قوات أخرى من بسطة والمناطق الأخرى للمشاركة في هذه الحملة.

الفصل الثالث

مدينة بسطة في عهد الطوائف والمرابطين والموحدين وبني الأحمر

أولاً: مدينة بسطة في عصر الطوائف Taifas, Los

بعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة^(١) في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تمكن خيران العامري الصقلبي^(٢) من السيطرة على شرق الأندلس^(٣) بما فيها مدينة بسطة ، وقد أشار إلى ذلك مؤلف مجهول بقوله: ((ثار بالمرية سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤م ، فملكها أربعة عشر سنة وأربعة أشهر ،

(١) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م، ينظر: العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/١٥٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٥٣.

(٢) خيران العامري من موالى المنصور بن أبي عامر حكم المرية وبلاد تدمير أيام الفتنة (٤٠٥ - ٤١٩ هـ / ١٠١٤ - ١٠٢٨ م)، ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب ٢/١٩٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/١٦٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٠١.

(٣) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/١٦٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٠١.

وملك وادي آش وجيان وبياسة وشوذر^(١) وبسطة وأرجونة^(٢) وباجة
وطلياطة^(٣) وشتنجيلة^(٤) ، ولم يكن في الثوار أوسع عملاً منه^(٥) .

وتحدث عنان عن مناطق نفوذ خيران العامري بالقول: استقر
خيران في ألمرية ، وبسط حكمه على أعمالها ، وكانت إمارة ألمرية
تشمل يومئذ المنطقة الممتدة من شاطئ اسبانيا الشرقي الجنوبي ،
على هيئة مثلث كبير ، غرباً حتى وادي آش وحدود مملكة غرناطة ،
وشمالاً حتى بسطة وجيان ، وقد كانا أهم قواعدها بعد ألمرية^(٦) .

وفي سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م توفي خيران العامري^(٧) فخلفه في حكم
شرق الأندلس زهير العامري^(٨) ، ويبدو أن أهالي هذه المناطق لم
يرضوا بحكمه ، إلا أنه تمكن من التغلب عليها وبقي فيها حتى

(١) مدينة أندلسية من أعمال كورة جيان مشهورة بكثرة المياه والبساتين،
ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣٥١ .

(٢) مدينة في الأندلس من أعمال كورة جيان ينسب إليها محمد بن يوسف
بن الأحمر من سلاطين غرناطة، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٢٦ .

(٣) مدينة بالأندلس بينها وبين إشبيلية عشرين ميلاً، ينظر: الحميري،
الروض المعطار، ص ٣٩٥ .

(٤) وتلفظ شنتجالة أيضاً، وهي مدينة من شرق الأندلس في طرف كورة
تدمير مما يلي الجوف، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٧ .

(٥) تاريخ الأندلس، ص ٢٥٢ .

(٦) دولة الإسلام في الأندلس، ١٦١/٢ .

(٧) العنزي، ترصيع الأخبار، ص ١٦ .

(٨) زهير العامري من موالي المنصور بن أبي عامر فرّ إلى شرق الأندلس في أيام
الفتنة وحكم ألمرية وما جاورها مدة عشر سنوات ثم قتل في غرناطة سنة
٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أثناء محاولته السيطرة عليها من بني مناد، ينظر: ابن
الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٦/٢ - ٢١٧ .

مقتله سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م^(١).

وبعد مقتل زهير العامري صار حكم هذه المناطق بما فيها مدينة بسطة إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر^(٢) ، وقد أشار مؤلف مجهول إلى توليته حكم مناطق شرق الأندلس بقوله: ((وتوفي-أي زهير العامري- في آخر شوال سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، فولى بعده أبو الحسن عبد العزيز بن عبدالرحمن بن محمد المنصور بن أبي عامر فملك جميع عمله...))^(٣).

إلا أن حكمه لهذه المناطق بما فيها بسطة لم يستمر طويلاً بيد عبد العزيز بن أبي عامر إذ انتزعها منه بنو صمادح التجيبين ، وذلك عندما خرج عبد العزيز لمواجهة قوات مجاهد العامري^(٤) المتجه إلى بلنسية للدفاع عنها ، وعند خروجه ترك صهره أبا

(١) العنزي، ترصيع الأخبار، ص ١٦.

(٢) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر بايعه الموالي العامريون في شرق الأندلس أيام الفتنة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م واستمر حتى وفاته سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٧/٢ - ١٨٨.

(٣) تاريخ الأندلس، ص ٢٥٢.

(٤) مجاهد العامري من فتيان المنصور بن أبي عامر وقد استقل بدانية بعد سقوط الدولة العامرية وكان ذا نباهة ورياسة ومحباً للعلم والأدب، توفي سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م، ينظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٢٠ ؛ ابن سعيد، المغرب، ٤٠١/٢ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ٣/ ١٥٥ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٣٤/٢٩ - ٤٣٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٠٤/٢.

الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبي^(١) ليرعى شؤون مدينة المرية، فما كاد عبد العزيز يغادر المرية حتى وطد أبو الأحوص الأمر لنفسه وخلع طاعة عبد العزيز واستولى على المرية وبعض المناطق التابعة لها مثل لورقة وبياسة وبسطة ودلاية Dallas وأندرس Andrax وذلك سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م وكان من المؤيدين له في ذلك باديس^(٢) صاحب غرناطة، وبذلك دخلت هذه المناطق في عهد جديد من تاريخها^(٣)، إذ انتهى نفوذ العامرين بها ودخلت المنطقة في صفحة جديدة من الصراع عليها بين دويلات الطوائف المحيطة بها وهم: بنو صمادح التجيبيون في المرية وبنو مناد الصنهاجيون في غرناطة وبنو عباد^(٤) في إشبيلية وبنو

(١) حكم معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي المرية للمدة بين ٤٣٣هـ / ١٠٤١ م حتى وفاته سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م، ينظر: ابن الأبار، الحلة السيرة، ٧٨/٢ - ٨٨؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٤/٢.

(٢) هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي حكم مدينة غرناطة في عصر الطوائف، ووصف بأنه كان قاسياً حازماً، توفى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م، وقيل ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م، ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٠٧/١، ١١٤، ١٩٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٠/٢.

(٣) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٥٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٤/٢.

(٤) ينتسب بنو عباد إلى أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد ابن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاء بن نعيم اللخمي، دخل جده عطاء بن نعيم مع موسى بن نصير وولي قضاء إشبيلية سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م، وفي سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ثار القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد على القاسم بن =

ذو النون^(١) في طليطلة ولم ينته ذلك إلا بدخول المرابطين Almoravides, Los ، وكى لا نستبق الأحداث لتتبع خطواتها.

استمر معن بن صمادح في حكم المرية وأعمالها حتى وفاته

=حمود الحسني وتغلب على المدينة فكانت بداية ملكهم، واستمر محمد بن عباد في حكم إشبيلية حتى وفاته سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١ م ، واستمر الحكم بعد ذلك في بنيه حتى سقوطهم بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، ينظر: المراكشي، المعجب، ص٧٢- ٧٣ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ ١٩٣- ١٩٦ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٣/ ٤٤٢- ٤٤٨ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ١٤٨- ١٥١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس (تحقيق بوباية) ص٢٦٠ - ٢٦١.

(١) ينتسب موسى بن ذي النون بن سليمان بن طوريل بن الهيثم بن إسماعيل ابن السمح بن ورد حيقن الهواري الحميري بالحلف، وأن اسم جدهم ذي النون إنما هو زنون فتصحف بطول المدة إلى ذي النون، وكان أول من دخل الأندلس منهم هو جدهم إسماعيل بن السمح نزل بكورة شنت برية فكانت لهم فيها رياسة، ووافق أن اجتاز الأمير محمد بشنت مرية في بعض مغازيه واعتل له خصي من أكابر فتياته فتركه عند ذي النون فبلغ في الإحتفاء بالفتى إلى أن برىء من علته، فكافئه الأمير محمد وقدمه على قومه، فشكر للأمير نعمته واستقام على الطاعة حتى توفى، فولى مكانه ابنه أبو الجوشن ابن ذي النون، وبعد وفاته ولي أخوه موسى، وفي عصر الطوائف تمكنوا الاستقلال في طليطلة وأسسوا فيها دولة لهم استمرت في أعقابهم حتى سقوطها بيد النصارى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م، ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، أعلام الأعلام، ٢/ ١٧٥- ١٨٠ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٥٩- ٢٦٠.

سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٤١ م^(١) ، تولى بعده ابنه أبو يحيى محمد بن صمادح الملقب بالمعتصم الذي طمع بالتمدد على حساب أراضي مملكة غرناطة وانتزع منهم مدينة وادي آش ، عندها استنجد حاكمها باديس بن حبوس الصنهاجي بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة الذي سارع إلى نجده طمعاً في الحصول على بعض المكاسب ، وفعلاً تمكنت قوات الطرفين من انتزاع وادي آش من ابن صمادح وسُلِّمت إلى باديس بن حبوس صاحب غرناطة وحصل المأمون بن ذي النون على مدينة بسطة ثمناً لذلك التحالف ، وقد علق عبد الله بن بلقين على ذلك بقوله: ((فلما رأى من بالقصبة من أكابر أهل المرية ما دهمهم ، وأنه لا ملجأ لهم إلا الهرب أو السيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تحيلوا وأرسلوا إلى ابن ذي النون ، وهم على الهلكة ، يعلمونه بما هم فيه وقطع رجائهم عن إمداد صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسط أمرهم مع المظفر^(٢) ، ويأخذ لهم العفو ، ويخرجون على سلامة ، ووعده على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يصيروا القرية ملكه ، وكان ابن ذي النون من الطمع في غاية لم ينته إليها ملك ، فطمع في قولهم ذلك ، وترامى على جدنا ، ورغب إليه ، فأسعفه ، حتى خرجوا وأخلوا له القصبة وثقفها بحماة رجاله ، واستنجز ابن ذي النون وعده ، وقال: إن الذي

(١) ابن بلقين، التبيان، ص ٤٥ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٥٢ ؛

عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٦/٢

(٢) المظفر هو لقب باديس بن حبوس.

أريد من هذه البلاد بسطة ، فلم يكن بدّ للمظفر من انجاز وعده ،
وأمر بإخلائها له))^(١).

وجعل ابن بلقين ذلك بعد مقتل وزير باديس اليهودي يوسف
ابن نغالة^(٢) ، ولما كان مقتل الأخير في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م^(٣) ، لذا فإن
مدينة بسطة دخلت في حيز نفوذ بني ذي النون في هذه السنة.

إلا أن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى كيفية إدارة مدينة بسطة
من قبل بني ذي النون أو المدة التي بقيت بأيديهم ، ولكن ابن بلقين
أشار إلى أنه كان في مدينة بسطة في أيامه (٤٦٥-٤٨٣ هـ / ١٠٧٢-١٠٩٠ م)
قائد يدعى ابن ملحان وكان يحكمها منذ أيام جده باديس بن
حبوس^(٤) ، والراجح أن بني ذي النون لم يغيروا من إدارة المدينة شيئاً
واكتفوا بما يُجبى إليهم من أموالها ، ومما يدل على ذلك ما أشار إليه
ابن بلقين عنهم بقوله: ((وكان ابن ذي النون من الطمع في غاية لم
ينته إليها ملك))^(٥).

(١) ابن بلقين، التبيان، ص ٤٢.

(٢) يوسف بن نغزالة وزير لباديس بن حبوس واستطاع بما يمتلك من دهاء
السيطرة على باديس ويدير وينفرد بالسلطة واستمر بذلك حتى سنة
٤٥٩هـ/ ١٠٦٦ م عندما عزم على تسليم غرناطة لابن صمادح ففطن له
جماعة من أعيان صنهاجة وعملوا على قتله، ينظر: ابن بلقين، التبيان، ص
٣٠ - ٤١.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ٣/٢٦٦.

(٤) التبيان، ص ٥٢.

(٥) التبيان، ص ٤٢.

أما ابن ملحان الذي حكم مدينة بسطة ، فهو ينتمي إلى بني ملحان البكريين^(١) ، قال عنهم ابن سعيد هم من بيوتات العرب ببسطة^(٢) ، وحسب ابن بلقين فإن باديس أعطى إدارة مدينة بسطة إلى أحد رجالاتهم فلما توفي تولى ابنه مكانه بأمر باديس ، ويسميه ابن ملحان إلا أن الأخير خرج على الأمير عبد الله بن بلقين وأعلن ولاءه لبني صمادح في المرية مستغلاً انشغال ابن بلقين بصراعه مع بني عباد ، إذ قال: ((وكان قائد مدينة بسطة ابن ملحان ، رجل معجب ، قد شرهت نفسه إلى رتب الملوك ، وكان المظفر^(٣) -رحمه الله- قد فوّض إليه أمر البلدة عوضاً عن أبيه ، فلما صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراء الوزراء ، جعل كل واحد منهم يطلبه بمال ، ويسأله متاحفات ، فمن لم يعطه ، طالبه وأذاه ، مع صغر سننا ، فلم يجد سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه ، ولا شكوى لمن يذب عنه ويحميه ، فترامى على ابن صمادح وقبّله ، وصارت البلدة إليه ، وعلم أنه لا يُفَاتن طول مدة الفتنة مع ابن عباد ، ثم إنه غدر حصن شيلش^(٤) ، ونحن ، في ذلك كلّه ، لا نفر عن مخازاته بالإضرار

(١) البكريون في الأندلس نسبة إلى بكر بن وائل، ينظر: ابن الأبار، التكملة،

١٢٦/١؛ المقري، نضج الطيب، ٢٩٢/١.

(٢) المغرب في حلى المغرب، ٧٧/٢.

(٣) يعني جده باديس بن حبوس.

(٤) ثعلبه الذي أسماه ابن الخطيب بلبيش أو بلبيش من حصون جيان، ينظر:

الإحاطة، ٩٩/٢.

ببلده ، وصار إلينا من حصن شنت أقلج^(١) من معاقله ما وقعت
المعاوضة به عن شيلش ، وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى
نرى ما نصنع مع ابن عباد^(٢).

وهذا النص الذي ساقه أمير غرناطة عبد الله بن بلقين غاية في
الأهمية بخصوص مدينة بسطة ، فهو يوضح أن بني ملحان من
أعيان البلد كانوا حكاماً فيها منذ عهد باديس وأنهم توارثوا ذلك ،
فلما ضعفت دولة غرناطة في أيامه واستبد الوزراء بسبب صغر سن
الأمير أثقلوا كاهل أهالي بسطة بالجبايات وابتزوا حاكمها بأن يرسل
إليهم الهدايا ، عندها رأى قائدها ابن ملحان أن يجعل نفسه تحت
حماية المعتصم بن صمادح وأعلن ولاءه إليه ، وبذلك عادت تبعية
مدينة بسطة مرة أخرى إلى بني صمادح حكام المرية وهو ما اضطر
ابن بلقين إلى مهادنة ابن ملحان حاكم مدينة بسطة.

إن الصورة أعلاه التي ذكرها الأمير ابن بلقين عن ابن ملحان
قائد بسطة فيها نوع من الغمز ، إذ وصفه أنه مُعجب بنفسه كان
يطمح أن يكون في مصاف الملوك ، إلا أن ابن سعيد أعطى صورة
مغايرة تماماً عنه ، إذ قال: إن ملحان هذا هو أبو مروان عبد الملك بن
ملحان وأن أهل بسطة هم من أكرهوه على تولى حكم المدينة في

(١) قال ياقوت الشنت لفضة يهني بها البلدة أو الناحية، الأندلس من معجم
البلدان، ص ١٧٠؛ وأشار الزبيدي إلى أقلوش وقال إنها من أعمال غرناطة،
الأندلس من تاج العروس، ص ٢٥، فلحها ناحية أو بلدة هناك.

(٢) التبيان، ص ٥٢.

أيام الفتنة ولم يكن هو يطمع في ذلك كونه صاحب فقه وحديث وأدب^(١) ، ويبدو أن ما ذهب إليه ابن سعيد هو الأقرب للصواب ، فأهالي مدينة بسطة قد أرهقتم الضرائب والمطالبة بالأموال من الدويلات المجاورة لهم وتنافسها في الحصول على ثرواتهم كدولة بني ذي النون وبني صمادح وبني مناد ، وعندما رأوا ضعف بني مناد في غرناطة وانشغالهم بحرب بني عباد عملوا على التحرر من نفوذهم والانضواء تحت حماية بني صمادح وفق شروطهم ، ولذا اختاروا أحد صلحائهم وهو أبو مروان عبد الملك بن ملحان وسلموا إليه حكم مدينتهم ، وقد اثبت الأخير مقدرته في حكم مدينة بسطة إذ استمر فيها حتى أخذها منه الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين^(٢) .

(١) المغرب في حلى المغرب، ٧٧/١ - ٧٨.

(٢) ابن سعد، المغرب في حلى المغرب، ٧٨/١ ؛ ويوسف بن تاشفين أمير المرابطين ومؤسس دولتهم التي وطد أركانها، وكان له دور كبير في فتح بعض مناطق المغرب ومن ثم الأندلس إذ عبر إليها بجيش كبير بعد استنجد الأندلسيين به، وتمكن من إلحاق هزيمة كبيرة بقوات مملكة قشتالة بقيادة الفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م، بعدها قام بتوحيد الأندلس تحت حكمه، وتوفي سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٦٨/٣ - ٤٧٦ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٣٦ - ١٥٦ .

ثانياً: مدينة بسطة في العهد المرابطي

أما عن كيفية دخول مدينة بسطة في طاعة المرابطين فيبدو أن ذلك كان مرتبطاً بتطورات الأحداث في شرق الأندلس عقب معركة الزلاقة Sagrajas^(١) ، إذ قرر ملك قشتالة الفونسو السادس (٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨ م) معاقبة أمراء الطوائف في الأندلس بسبب موقفهم مع المرابطين (Almoravides) ، فضلاً عن أن أمراء الطوائف لم يعملوا على توحيد صفوفهم للوقوف في وجه الملك القشتالي بل عادوا إلى سيرتهم الأولى في التنافس والنزاع فيما بينهم ، عندها أخذ الفونسو السادس المبادرة وأرسل بقواته إلى مناطق شرق الأندلس وعاثت في أراضيها فساداً ، ومن أجل أن يبسط قبضته على المنطقة عمل على بناء حصن كبير ومنيع يسمى حصن البيط (أليدو Aledo) بين مدينتي مرسية ولورقة ، أي على مقربة من بسطة في الشمال الشرقي منها^(٢) ، وشحنه بالرجال والسلاح واتخذه قاعدة للإغارة على أراضي هذه المناطق ولاسيما مدن مرسية ولورقة وبسطة^(٣).

(١) وهي المعركة التي حدثت بين القوات المرابطية والأندلسية من جهة وقوات النصراري الأسبان بقيادة ملك قشتالة الفونسو السادس وانتهت بهزيمة الأخير وذلك سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، ينظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٢٩٥؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٠٤ - ٣٠٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١١٦/٧ - ١١٧؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٤٥ - ١٤٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٣٨٩/٢؛ المقرئ، نصح الطيب، ٤٣٩/١.

(٢) ينظر الخارطة.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤١/٤؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٢.

عندها قرر أهالي هذه المدن تشكيل وفد وعبروا إلى مراکش وشكوا ما حلّ بهم من الجند القشتالي في حصن البيط ، وقد علق ابن عذاري على ذلك بقوله: ((لما كان بعد وقعة الزلاقة بسنين وفدت على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بحضرة مراکش جملة من وجوه الأندلس من أهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة فشكوا له ما حلّ بأهل بلنسية من أهل الأنبيطور^(١) وكان وهو من ملوك الروم وقد لازم حصارها حتى دخلها ، وشكوا له ما حلّ بأهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من شأن لبيط وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو وكانت سراياه تسير شرقاً وغرباً إذ كان في متوسطة بلاد المسلمين فلم يزل وجوه

(١) السيد القمبيطور (Cid El Campaedor) أو الكمبيادور وهو فارس قشتالي مغامر تزعم فرقة من الفرسان النصارى وأخذ يجوب شرق الأندلس ويستأجر نفسه لحكامها ثم يضرب بعضهم ببعض من أجل إضعافهم، وعندما رأى اختلال الأمور في بلنسية توجه إليها بصحبة المستعين بن هود وضرب عليها الحصار مما اضطر أهلها إلى الاستسلام بعد أن عقدوا معه معاهدة تصب في صالحه وأسياده حكام قشتالة، وكان ذلك سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وصادر أموال القادر ثم نقض الصلح مع أهالي المدينة وقتل القاضي ابن جحاف الذي وقع معه المعاهدة بعد أن عنده حرقاً بالنار، ثم أمر بإحراق جماعة من أعلام أهل المدينة وسام أهلها العذاب مما اضطر الكثير منهم إلى مغادرتها ولم ينقذ ذلك الوضع إلا دخول المرابطين المدينة سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٣١/٢ - ٤٢؛ عنان، دول الطوائف، ص ٢٣١ - ٢٤٨.

الأندلس من تلك البلاد يترددون إليه بالشكوى حتى وعد بالجواز إليهم^(١).

كما عبر إلى المغرب أمير إشبيلية المعتمد بن عباد^(٢) وشرح للأمير المرابطي ما تعرض له المسلمون في مناطق مرسية ولورقة وبسطة وغيرها من مدن الشرق الأندلسي من غارات النصارى ، فوافق الأخير ولبى الدعوة^(٣).

وعلى إثر ذلك عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وهو العبور الثاني سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، وسار إلى مناطق الشرق الأندلسي وقد تلاحقت به قوات المعتمد بن عباد أمير إشبيلية والمعتمد بن صمادح صاحب المرية ، وتيم بن بلقين^(٤) صاحب مالقة وأخوه عبد

(١) البيان المغرب، ١٤١/٤ .

(٢) حكم المعتمد بن عباد دولة إشبيلية من سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م حتى دخول المرابطين إليها واعتقاله سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، وكانت وفاته ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ٢٧/٤ ؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ٢٠٢٥ ؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ٥٢/٢ - ٦٨ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٥٤/٢ - ١٦٢ .

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤١/٤ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٢ ؛ ابن الخطيب ، التحلل الموشية، ص ٦٧ .

(٤) هو تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس الصنهاجي ولاء جده باديس مالقة، وكان سيء السيرة مبذراً، وبقي في مالقة حتى اعتقاله على يد المرابطين ونفوه إلى السوس، ثم غفى عنه أمير المرابطين فسكن مراكش وتوفي بها سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٤/٢ .

الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وابن رشيق^(١) صاحب مرسية ، كذلك التحق به قوات رؤساء مدن شقورة Segura وبسطة وجيان وغيرها^(٢).

والراجح أن حاكم مدينة بسطة ورئيسها أبو مروان عبد الملك بن ملحان كان قد شارك بقوة منه إلى جانب القوات المرابطية والأندلسية في حصار حصن الييط ، وقد أشار إليه ابن عذاري بشكل غير مباشر بقوله: ((وتوافى رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان ومن كل مكان...))^(٣) ، ولا نستبعد أن مشاركة أهالي بسطة كانت كبيرة في هذه الحملة ، لأنها من المدن الرئيسة التي تعرضت للاعتداءات النصرارى من حصن الييط فضلاً عن قربها من منطقة تجمع الجيوش.

إلا أن حصار حصن الييط لم يأت بنتائج مرضية بالنسبة

(١) عبد الرحمن بن رشيق أحد الطامعين ظهر في شرق الأندلس واستطاع التغلب على مرسية بمساعدة النصرارى وناصر المعتمد بن عباد العداء ولكن الأخير تمكن من إلقاء القبض عليه وسجنه في ثورقة سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، ينظر أخباره : ابن بسام، الذخيرة، ٢٥/٥ ؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ١٤٠/٢ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٣٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٢/٢ .

(٢) ابن الأبار، الحلة السيرة، ١٧٥/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤٢/٤ ؛ ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ٦٨ - ٦٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٥/٢ .

(٣) البيان المغرب، ١٤٢/٤ .

للمرابطين والأندلسيين ، فلم تتمكن القوات الإسلامية من اقتحام الحصن بسبب حصانته أولاً ثم الخلافات العميقة بين أمراء ورؤساء الأندلس ثانياً وهو ما أطال أمد الحصار وساد التذمر ، وشعر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بخيبة أمل اضطر بعدها إلى الانسحاب وهو يحمل في نفسه عليهم ، وقد علق ابن عذاري على ذلك بالقول: ((أنه لما كان على حصن لبيط نُقل إليه عن ملوك الأندلس كلام أحفظه ووغر صدره عليهم وهو الذي أزعجه إلى العدو...))^(١) ، وقال ابن الخطيب: ((ثم جاز ثانية ، ونازل حصن الإبط من كورة تدمير ، وتعذر عليه فتحه ، فقفل إلى بلاد المراكشية ، وقد وجد على ملوك الأندلس واتهمهم بالإغماض في أمره ، وداخله الناس في شأنهم ، ودُست إليه السعايات بهم))^(٢).

وفي أوائل سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وكان في هذه المرة ينوي القضاء على دويلات الطوائف التي حملها مسؤولية تردي الأوضاع في الأندلس ، وأول ما ابتدأ بغرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين حيث اعتقل وأرسل إلى المغرب وبقي إلى أن توفي هناك^(٣).

(١) البيان المغرب، ٤/١٤٣.

(٢) أعمال الأعلام، ٢/٢٢٣.

(٣) ابن بلقين، التبيان، ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤ ؛

ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢١٤ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص

٢٥٨ - ٢٥٩.

بعدها عاد يوسف بن تاشفين إلى العدو تاركاً قواته القيام بمهمة القضاء على بقية أمراء الطوائف ، فقامت فرقة من الجيش المرابطي بالتوجه نحو جيان وقرطبة وتمكنوا في فتحها في أوائل سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١م ثم ضم معظم المدن المجاورة لها إلى سلطتهم ، وفي ذلك يقول ابن أبي زرع: ((وكان فتح المرابطين لقرطبة يوم الأربعاء سنة أربع وثمانين وأربعمئة ، ثم فتح بياسة وأبذة وحصن البلاط والمدور^(١) والصخيرة^(٢) وشقورة ولم ينقض شهر صفر حتى لم يبق لابن عباد بلد إلا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة وإشبيلية))^(٣).

أما مدينة بسطة فالراجح أن المرابطين دخلوها بعد فراغهم من غرناطة وأن فرقة الجيش المرابطي التي توجهت نحو أبذة Ubeda وجيان وشقورة قد مرت بطريقها على مدينة بسطة ، وذلك لأن الطريق بين غرناطة وجيان يمر عبر مدينة بسطة^(٤) ، وفي ذلك يقول ابن سعيد عن حاكمها عبد الملك بن ملحان: ((...ومن يديه أخذها يوسف بن تاشفين))^(٥).

(١) وهو حصن بالقرب من قرطبة، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٨.

(٢) حصن بالأندلس من أعمال ماردة، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨١.

(٣) الأنيس المطرب، ص ١٥٤.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.

(٥) المغرب في حلى المغرب، ٧٨/٢.

لم تنعم مدينة بسطة بالهدوء طويلاً بعد دخولها في حوزة المرابطين وذلك بسبب احتدام حدة الصراع مع الدويلات النصرانية التي رأت في عبور المرابطين إلى الأندلس تحدياً جديداً لنفوذها الذي أخذ يتمدد في شبة الجزيرة الأيبيرية عقب سقوط طليطلة في أيديهم سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م ، وقد خاض الطرفان النصراني الإسباني والمرابطي الإسلامي معارك عنيفة على أرض الأندلس الإسلامية عانت خلالها المدن الأندلسية مرارة الحروب وويلاتها.

ففي الربع الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي قام ملك أراغون الفونسو الأول المحارب(٤٩٩-٥٢٩ هـ/ ١١٠٥-١١٣٤م) بحملة مدمرة اخترق خلالها الأندلس من شمالها إلى جنوبها ، حاصر خلالها مدينة بسطة وذلك سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥م ، إذ سار بجيشه في أول شعبان من سرقسطة إلى مدينة غرناطة في قوة مختارة من أربعة آلاف مقاتل ، وساهمت معه القوات الفرنسية بقيادة(جاستون دي بيارن) وعدد من رجال الدين في مقدمتهم أسقف سرقسطة ووشقة Huesca^(١) ، وقد تعاهدوا جميعاً وتحالفوا بالإنجيل على أن يفر أحد منهم حتى ينتصروا أو يموتوا^(٢).

(١) هي من مدن الثلغ الأعلى الأندلسي، وتقع شرقي مدينة سرقسطة إذ تبعد عنها خمسون ميلاً، ينظر: اليعقوبي، البلدان، ص ١٩٥؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٦١٢.

(٢) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ٩٠؛ أشباح، تاريخ الأندلس، ١/١٥٥.

وقد سار ملك أراغون شرقاً واخترق أراضي لاردة^(١) وأفراغة Fraga^(٢) وهو يعيث فيها فساداً ثم اتجه جنوباً ودخل أراضي بلنسية يدمر الزروع ويحرق القرى وكل ما وقع أمامه ، وقد قاومته في بلنسية قوة مرابطية بقيادة يدر بن ورقاء^(٣) وذلك في أواخر شهر رمضان وكان من الصعب أن تجتمع القوات المرابطية للوقوف في وجهه ، لأنه حرص على إخفاء وجهته الحقيقية وبقي متحركاً طوال تلك المدة^(٤) ، بعدها غادر بلنسية إلى جزيرة شقر Jucar فقاتلها أياماً رحل بعدها إلى دانية وقاتلها ليلة عيد الفطر ، واستمر في سيره إلى شاطبة Jativa وألش وأربولة حتى وصل إلى مرسية ثم إلى برشانة Purchina - وهي أحد بلدات بسطة - حيث استراح بقربها أياماً ثم توجه إلى وادي ناظلة ومنها سار إلى مدينة بسطة وحاول منازلها وافتتاحها لسهولة موقعها ، وضعف تحصيناتها ، ولكنه لم

(١) وهي مدينة قديمة تقع في الثغر الأعلى الأندلس باتجاه الشرق وتبعد عن طركونة خمسين ميلاً، وأرضها خصبة ولها بساتين كثيرة، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧.

(٢) مدينة أندلسية تقع غربي مدينة لاردة في الثغر الأعلى وبينهما ثمانية عشر ميلاً، ولها حصن منيع وبساتين كثيرة، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨.

(٣) وهو القائد أبو عبد الله يدر بن ورقاء المرابطي كان والياً على بلنسية للمرابطين سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م، ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٥٢ - ١٥٣ هامش رقم (٣).

(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٨/٣.

ينجح في ذلك ، فغادرها إلى وادي آش ، ثم انتقل إلى مدن أندلسية أخرى إلا أنه لم ينجح في مسعاه^(١).

وبخصوص حصاره لمدينة بسطة أشار ابن الخطيب بقوله: ((... ، ثم تحرك إلى مدينة بسطة ، فلحقه الطمع فيها لكونها في بسط من الأرض ، فأكثر حاراتها غير مسورة ، فلم يعنه الله عليها ، ثم توجه إلى وادي آش...))^(٢) ، ولعل أهالي بسطة قد أظهروا من المقاومة له والدفاع عن مدينتهم ما اضطره إلى تغيير وجهته نحو وادي آش ثم إلى غرناطة بسبب مراسلة المعاهدين من النصارى له ، وفي ذلك أشار ابن عذاري بقوله: ((... ، فبدأ نحيث المعاهدة في استعدائه ، وافتضح سرهم في اجتلابه...))^(٣) ، وعلى الرغم من أن الملك الأغرغوني لم يستطع تحقيق أهدافه ، إلا أن هذه الحملة كشفت عن ضعف نظم الدفاع في المدن الأندلسية^(٤).

وقبل نهاية العهد المرابطي قامت عدة ثورات ضدهم في مختلف أنحاء الأندلس مستغلين حالة الضعف والاضطراب التي مرت بها

(١) لمزيد من التفاصيل عن حملة الفونسو المحارب ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٠/٤؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٢/١؛ التحلل الموشية، ص ٩٣؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٩/٣ - ١١٠؛ سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الأندلسية، ١٤٤/١.

(٢) التحلل الموشية، ص ٩٢ - ٩٣.

(٣) البيان المغرب، ٧٠/٤.

(٤) السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٥٧.

الدولة المرابطية آنذاك^(١) ، ومنها منطقة الشرق الأندلسي ، ففي منطقتي بسطة ووادي آش استعادت عائلة بني ملحان العربية نفوذها القديم إذ كانوا حكام بسطة في نهاية عهد الطوائف ومنهم انتزع المرابطون مدينة بسطة ، فلما كان في هذا الوقت قام أحد رجالها وهو أحمد بن محمد بن ملحان بالثورة سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م في مدينة وادي آش وضم إليها مدينة بسطة واستقل في حكم المنطقة ودعا لنفسه وتلقب بالمتأيد بالله ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: ((ثار بوادي آش ، وتلقب بالمتأيد بالله ، وحصن القصبه ، وأخذ بالحزم ولم يكل أمره إلى غيره ، وخاض في الفتنة خوض الجرأة... وظهر على كثير مما يجاور بلده كمدينة بسطة ، وبها له اليوم عقب))^(٢).

وقد استمر أحمد بن محمد بن ملحان الطائي يحكم بسطة ووادي آش لمدة ستة سنوات قام فيها بعدة أعمال مهمة منها أنه عمل على استغلال الأراضي واستصلاحها فحصل من ذلك على أموال طائلة حتى غدا من أغنى أهل زمانه ، وإلى ذلك أشار ابن الخطيب بقوله إنه كان: ((معروف الكفاية مضطرباً بالعمل... فأتى على كثير من الأنفس والأموال ، واقتنى كثير من الأموال

(١) ينظر التفاصيل عن أسباب الثورات على المرابطين : دندش، الأندلس في

نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٢٣ - ٤٥.

(٢) أعلام الأعلام، ٢/٢٣٧؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس،

والذخيرة ، واستعان على فتاه بالفلاحة وإثارة الحرث فكان أغنى أهل زمانه))^(١) ، ومما يدل على مهارته في الزراعة واستغلال الأرض أنه بعد أن انضم إلى الموحدين - كما سنرى - استعانوا به في استصلاح أراضي منطقة البحيرة في مدينة مراكش ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: ((... ، واستعمل بمراكش في اشتغال البحيرة وبنائها وإجراء مائها))^(٢).

ثالثاً: مدينة بسطة في عهد الموحدين Almohades, Los

في الوقت الذي كان فيه ابن ملحان ينعم بالهدوء في منطقتي وادي آش وبسطة وجنى منهما أموالاً ، كانت باقي مناطق شرق الأندلس توج بالثوار والطامعين وكان في مقدمتهم محمد بن سعد ابن مردنيش^(٣) الذي استغل ظروف انهيار سلطة المرابطين في

(١) أعمال الأعلام، ٢/٢٣٧.

(٢) أعمال الأعلام، ٢/٢٣٧.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش، وذكر ابن الأبار أن ابن مردنيش جذامي، وأشار ابن حزم إلى أن بعض بطون جذام سكنت الأندلس، وينفي فرانشيسكو كوديرا نسبه العربي ويرجح أنه يعود إلى الجالية البيزنطية التي كانت في الأندلس قبل الفتح، وقد تمكن من بسط نفوذه على شرق الأندلس وحاول الوصول إلى غرناطة إلا إنه اصطدم بالموحدين الذين هزموه عدة مرات، فلما أحسّ في نفسه الضعف صالح خليفة الموحدين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وزوج ابنته صفية إلى يعقوب بن يوسف الموحدي، وزوج ابنته الثانية زائدة إلى يوسف بن عبد =

الأندلس وقيام دولة الموحدين فكون له إمارة بسطت نفوذها على مناطق واسعة من شرق الأندلس ثم أخذ يطمع بتوسيع نفوذه في مناطق جنوب ووسط الأندلس فتملك جيان وبياسة وإستجة Ecija وحاصر قرطبة Cordoba كما هاجم إشبيلية^(١) إلا أنه اصطدم بتنامي قوة الموحدين وامتدادها إلى هذه المناطق ، وبخصوص مدينة بسطة فقد أرسل إليها ابن مردنيش قواته وتمكنت من السيطرة عليها دون مقاومة ، ويبدو أن حاكمها أحمد بن ملحان لم يمتلك من القوات الكافية التي تمكنه من الوقوف في وجه قوات ابن مردنيش المدعومة من النصارى^(٢) ولاسيما القشتاليين الذين أرسلهم ملك قشتالة الفونسو السابع(السليطين) Alfonso Raimudez (٥٢٠-٥٥٢هـ / ١١٢٦ - ١١٥٧م) لمساعدته^(٣).

وعلى إثر ذلك تيقن ابن ملحان أنه لا طاقة له بمقاومة هذه القوات وأعلن طاعته للموحدين أملاً منه بالحصول على مساعدتهم

= المؤمن، وتوفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ينظر: المراكشي، المعجب، ص ١٧٦- ١٧٧؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ٢/٢٣٢ وهامش (١) ص ٢٣٣؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٢/١٢٢- ١٢٧؛ جابر، بنو مردنيش، ص ٨٥- ٩٨.

(١) ينظر عن توسعات بني مردنيش في مناطق وسط وجنوب الأندلس : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٣٤- ٢٣٦؛ جابر، بنو مردنيش، ص ١٣١- ١٥٤.

(٢) تحالف ابن مردنيش مع النصارى وكانت في صفوفه فرقة منهم تقاتل إلى جانبه، ينظر : المراكشي، المعجب، ص ١٨٣؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٣٥؛ جابر، بنو مردنيش، ص ١١١.

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٣٧٢.

إلا أن الوقت لم يكن يسعفه مما اضطره إلى الهرب بأهله وأمواله وعبر البحر إلى المغرب ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله: ((ودخل في طاعة الموحدين لما ضيق عليه ابن سعد وطمع فيما بيده ، وكان خروجه إليهم عنها سنة ست وأربعين وخمسمائة))^(١) ، وبذلك دخلت مدينة بسطة تحت نفوذ بني مردنيش في سنة ١١٥١/٥٥٦م.

لم تشر المصادر المتوفرة إلى مدة بقاء مدينة بسطة تحت حكم بني مردنيش وكيفية إدارتها ، ولكن الراجح أنه استعان بأحد الثائرين في المنطقة وهو إبراهيم بن همشك^(٢) في السيطرة على مناطق شرق الأندلس وجنوبها الشرقي وبقيت في أيديهم حتى الفتح الموحد لها ، إلا أن ما اتصف به ابن مردنيش من مجون

(١) أعمال الأعلام، ٢/٢٣٧.

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك أسلم جده على يد أحد أمراء يني هود، وعندما اضطربت الأحوال في أواخر عهد المرابطين اتصل بأمير شرق الأندلس محمد بن مردنيش وصاهره على ابنته، وقاد الجيوش معه وكان شجاعاً شديداً حاد البأس، وفي سنة ١١٦٠/٥٥٦م دخل غرناطة وهزم الموحديين في معركة مرج الرقاد ومثل بهم، ثم إن علاقته ساءت بابن مردنيش بعد أن طلق ابنته انضم ابن همشك إلى الموحديين نكاية بصهره واستمر في ولائه لهم حتى وفاته بعد سنة ١١٧٦/٥٧١م، ينظر: ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤١٢ - ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٣ - ٤٢٥؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢/٥٢، ٢٥٥؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١/١٥١ - ١٥٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٣٦٨ - ٣٦٩.

وانغماسه في اللهو ثم ارتمائه في أحضان النصارى واستعانتهم بهم ،
أثار غضب الأهالي عليه وفي مقدمتهم أهالي بلنسية ولورقة وبسطة ،
وقد عمل ابن مردنيش على التنكيل بهم ، وهو ما دفعهم إلى
الاستنجاد بالدولة الموحدية والتي كانت على علاقة بالثوار ، ولا
نستبعد أن ابن ملحان حاكم مدينة بسطة الذي لجأ إلى الموحدين
كان من المشجعين لهم على التخلص من ابن مردنيش ، ولهذا
أرسل الخليفة عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩ - ١١٦٢م)
رسالة إلى محمد بن سعد بن مردنيش من مدينة مراكش كانت
مؤرخة في ١٦ جماد الآخرة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، دعا فيها ابن مردنيش
إلى اعتناق أمر المهدي والدخول في الدعوة الموحدية ، ولفت نظره
إلى انه لم يفز أحد من زعماء الأندلس ببيغيته إلا من دخل في
الدعوة الموحدية ، وأن من خرج عليها منهم كان عقابه سوء
المنقلب ، ثم حثه إلى المبادرة والاعتبار ، ولامه بما كان منه في حق
أهل شرق الأندلس حينما أظهروا التوحيد^(١).

ويبدو أن محمد بن مردنيش لم يستجب لهذه الدعوة ، الأمر
الذي تطلب من الموحدين مواجهته ، ففي عهد الخليفة أبي يعقوب
يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٢-١١٨٤م) خرجت القوات
الموحدية من إشبيلية سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، وسارت إلى الشمال الشرقي
حتى وصلت إلى حصن أندوجر (Andujar) ، وهي من معاقل ابن

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٤٣/٦ - ٤٤٥.

مردنيش ، وتمكنت من الاستيلاء عليها ، وقد بادر أهل الحصون المجاورة إلى إعلان الطاعة ، ثم سارت هذه القوات جنوباً باتجاه مدينة مرسية القريبة من لورقة ، فوصلت إلى مدينة بسطة دون أي مقاومة ، وعلى مقربة منها تلقى الجيش الموحدى إمدادات من غرناطة منها فرقة من الرماة ، وسار الجيش بعد ذلك إلى مدينة لورقة ماراً بحصن بلش وهو من حصون لورقة ومن أهم معاقل ابن مردنيش في تلك المنطقة ، واستطاعت السيطرة عليها ووضعت في كل منها حامية موحدية ، ثم اتجهت القوات الموحدية نحو مرسية وبالقرب منها تمكنوا من هزيمة ابن مردنيش وحلفائه في موقعة فحص الجلاب ارتد بعدها ابن مردنيش إلى داخل مدينة مرسية^(١) ، فكانت هزيمة فحص الجلاب من أقسى الضربات التي أصابت ابن مردنيش ، وكانت بداية انحلال ثورته ، وانهيار سلطانه في شرقي الأندلس^(٢) .

وبخصوص الوضع في مدينة بسطة ومنطقتها فقد علق ابن أبي صاحب الصلاة على هذه الأحداث بقوله: ((وفي خلال مقام تلك الأيام بُعثت خيل مباركة من الموحدين والعرب لشن الغارة في الميمنة والميسرة من تلك الأقطار والجهات ، فاستاقوا من الغنائم من

(١) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٧٦ - ٢٨٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٨٨ - ٩٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦/٤ .

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨/٤ .

جهة غليرة^(١) وقرباقة^(٢) وبسطة وجبال شقورة عدداً جمماً وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الآلاف من الغنم^(٣).

ويبدو من أعلاه أن القوات الموحدية على الرغم من أنها وصلت إلى مدينة بسطة إلا أنها فشلت في الاستيلاء على المدينة نفسها واكتفت بما حصلت عليه من الغنائم من بسيط مدينة بسطة ، كما تم لهم فتح عدد من البلدات والقرى التابعة إلى مدينة بسطة ومنها قولية وبلس ، وقد أشار ابن أبي صاحب الصلاة إلى ذلك صراحة بقوله: ((ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة أخذنا في الحركة إلى أن انتهينا إلى حصن قلية^(٤) فساعة الإطلال عليه نزل أهله من ذروته آيين ، موحدين مستنجدين ، نظراً لأنفسهم ، وأخذاً لحظهم ، ثم حللنا بجهة بلس عمرها الله من سقع كثير القرى والعمائر ، ونظر معدوم النظائر ، وفي حصون وقلاع سمت مبانيها بالبقاع ، وتناسقت الأعيان في الارتفاع ، فهندما عاينوا من أمر الله وجنوده ما ضرَّ عيونهم وملاً قلوبهم نزل قائدهم الشرقي وأصحابه الرعية مستأمنين مدعين ، فأمنوا تأميناً ، وأضحوا ندرأ لعشائهم يساراً ويميناً ، وقدم في حصونهم من

(١) مدينة أندلسية تقع شمال مدينة بسطة، ينظر: ابن أبي صاحب الصلاة،

تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٨٤ هامش رقم (٣).

(٢) وهو حصن يقع شمال مدرسية الأندلسية، ينظر: ياقوت، الأندلس من

معجم البلدان، ص ٢١٧.

(٣) تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٨٤.

(٤) وهي قولية كما جاءت عند ابن سعيد، ينظر: المغرب في حلى المغرب، ٨٧/٢.

تقدم لضبطها ، وتشمر بحول الله في حوطها ،...))^(١).

ثم ارتد الجيش الموحيدي بسبب بعض الأحداث التي طرأت في بلاد المغرب ^(٢) تاركين ابن مردنيش ليعيد أنفاسه مرة أخرى ، وهكذا دخلت أجزاء من مدينة بسطة تحت نفوذ الموحيدين بعد أن حكمها ابن مردنيش للمدة من سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م إلى ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م أي حوالي أربعة عشر سنة ، أما المدينة نفسها فكانت أمامها جولة أخرى تنتظرها من الجيش الموحيدي لبضع سنين.

كان من نتائج موقعة فحص الجلاب سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م على ابن مردنيش أنها أحدثت انشقاق في صفوفه وأضعفت جبهته ، إذ انشق عنه حليفه وصهره إبراهيم بن همشك وأعلن الأخير انضمامه إلى الموحيدين والدخول في طاعتهم وذلك سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م^(٣) ، وكان الأخير يسيطر على مناطق مهمة من الأندلس مثل جيان وبياسة وأبذة وهو ما شجع الموحيدين على التصميم بالقضاء على ابن مردنيش لاسيما أن مكن ابن همشك الموحيدين من المناطق التي يسيطر عليها في وسط الأندلس ، وقد علق ابن أبي

(١) تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٨٤- ٢٨٥.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧/٤

(٣) ينظر التفاصيل عن الخلاف بين ابن همشك وابن مردنيش : ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤١٣- ٤١٦ ؛ ابن الأبار، الحلة السرياء، ٢/٢٥٩ ولكنه يجعلها سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحيدين، ص ١٠٨ ؛ جابر، بنو مردنيش، ص ١٤٧.

صاحب الصلاة على ذلك بقوله: ((... ، وأنه دخل في الطاعة رجاء العفو من الله تعالى وحسن ثوابه ، فجأوبه الأمر العالي - أدامه الله - بتقريبه واستجلابه ، والجزاء الأوفى على حسن منابه ، واتصلت البلاد التي كانت بيده ببلاد الموحدين ، وأمنت من الفتنة الطرق والرفاق ، وارتفع في تلك النواحي الفرق والنفاق))^(١).

ولكن نداءات الاستغاثة التي أخذ ابن همشك يرسلها إلى الموحدين للتعاون في القضاء النهائي على ابن مردنيش تأخرت حوالي عاماً بسبب الظروف التي كانت تمر بها الدولة الموحدية^(٢) ، وقد استغل ابن مردنيش تلك المدة وأخذ يرهق خصمه ابن همشك بالغارات على مناطقه ، وقد علق ابن عذارى على ذلك بقوله: ((وعندما اتصل توحيد ابن همشك بمحمد بن مردنيش أميره سقط في يده وتحقق أن ساعده قد كسر من عضده فحملته الأنفة والعجلة أن يأمر قواده أن يقاتنوا بلاد ابن همشك ويحاربوهم ويضيقوا عليهم ، فامتثلوا ذلك ، فدانت الفتنة بينهم أكثر من سنة كاملة))^(٣).

وفي سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م ألحّ ابن مردنيش بهجماته على مناطق ابن

(١) تاريخ المن بالإمامة، ص ٤١٤ - ٤١٥.

(٢) يعزو ابن أبي صاحب الصلاة ذلك إلى تحرك النصراني في غرب الأندلس واضطرابهم إلى إرسال قسم من قواتهم إلى هناك، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤١٦ - ٤١٩؛ ينظر أيضاً: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٩.

(٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٨ - ١٠٩.

همشك يساعده في ذلك حلفاءه النصارى ((فاستغاث ابن همشك بالموحدين وكثر صراخه وشكا حاله))^(١) ، عندها قرر الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن(٥٥٨-٥٨٠ هـ/١١٦٢-١١٨٤م) عزمه على إرسال قواته إلى الأندلس ووضع حد لابن مردنيش في شرق الأندلس ، إلا أن القوات الموحدية التي عبرت إلى الأندلس لهذا الغرض تأخرت في سيرها عدة أشهر إذ كان عبورها في أول ذي القعدة ولم تصل إلى قرطبة إلا في أواخر سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، ثم انتظرت في قرطبة حتى رجب من سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م^(٢) ، عندها تحركت القوات صوب أراضي ابن مردنيش ساعدهم في ذلك ودليلهم ابن همشك ، فاستولوا على مدينة قيجاطة Quesada^(٣) ثم لورقة وألش ثم عملوا على حصار مرسية التي تحصن داخلها ابن مردنيش ، وفي الوقت نفسه أرسلوا قسم من قواتهم إلى مدينة بسطة ، وفي ذلك يقول ابن أبي صاحب الصلاة: ((لما انصرف السيد المؤيد^(٤) المذكور من فتح لورقة إلى حصار

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٠ ؛ ينظر أيضا : ابن الأبار،

الحلة السراء، ٢/٢٦٠ .

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١١، ١١٢ .

(٣) وتسمى أيضا قيشاطة، وهي من أعمال كورة جيان، ينظر : ياقوت،

الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٩ .

(٤) السيد المؤيد أبو حفص بن عبد المؤمن بن علي وهو شقيق الخليفة يوسف

الموحدى أمهما صفية بنت أبي عمران، وهو قام ببيعة أخيه يوسف وإحكامها،

ينظر : البيهقي، أخبار المهدي بن تومرت، ص ٧٦ ؛ المراكشي، المعجب =

مرسية طاع له أهل حصن ألج^(١) ووجدوا ، ووصلوا المحلة تائبين ، ووصل معهم أكثر أهل الحصون والمجاورين لهم المنضمين إليهم فعُفِيَ عنهم ، وأمنوا وأحسن إليهم ، ثم إن السيد الأجل وجه عسكرياً مباركاً من الموحدين أعزهم الله ، ومن العرب والجند ، وقدم عليهم الشيخ أبا عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم^(٢) إلى مدينة بسطة ، ففتحها الله على يده ، ودخلت في طاعة الموحدين ، وأمنوا أهلها مثل تأمين غيرهم ، واتصل عند أهل الشرق هذا الفتح والأمان لهم والصفح...^(٣).

وبذلك خضعت مدينة بسطة وتوابعها ومنطقتها إلى الدولة الموحدية بعد جهود مضيئة بذلها الموحدون في السيطرة على المنطقة وانتزاعها من محمد بن سعد بن مردنيش ، ويبدو أن الموحدين قد كافتوا ابن همشك بعد قضائهم على ابن مردنيش بأن سلموا إليه

=ص١٧٤؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٠٢.

(١) ويسمى أئش وهو مدينة بالأنديس من أعمال تدمير، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣٠.

(٢) هو أبو عبد الله بن أبي إبراهيم تولى إشبيلية ثم غرناطة للموحدية، وكان أبوه من أصحاب المهدي بن تومرت، ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٣٠١.

(٣) تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٣٠؛ ينظر أيضاً: البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص ٨٨ إلا أنه أشار إلى أن أبا حفص بن عبد المؤمن هو من فتح بسطة؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٢- ١١٣؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس ٤٨/٤ - ٥٠.

ما كانت بيده من المناطق السابقة وهي جيان وأبذة وبياسة ، وفي ذلك يقول ابن الخطيب أن ابن همشك قدم على الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م فأقره بمواضعه إلى سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م ، إذ طولب بعدها الانصراف والعبور إلى المغرب وأُسكن في مدينة مكناسة حتى وفاته^(١) ، ويبدو أن مدينة بسطة ومنطقتها كانت ضمن نفوذ ابن همشك خلال تلك المدة لأنه شارك في فتحها.

ولم تشر المصادر المتوفرة إلى من تولى مدينة بسطة بعد رحيل إبراهيم بن همشك إلى المغرب ، ولكن يبدو أنها بقيت تحت الأشراف المباشر من الولاة الموحدية في قرطبة أو غرناطة وهم من يرسلون من ينوب عنهم إليها ، وتظالعا بعض المصادر أنه في عهد الخليفة الموحي يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥ هـ/ ١١٨٤-١١٩٨ م) تولى مدينة بسطة رجل يدعى شعبان بن كوجبا^(٢) ، وأشار المراكشي إلى أن شعبان هذا كان من المماليك الغز^(٣) في مصر ورد إلى بلاد المغرب مع عدد من المماليك على الخليفة الموحي يعقوب المنصور في سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م أو سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م ، وكان شعبان الغزي

(١) الإحاطة، ١/١٥٥.

(٢) المقرئ، نضج الطيب، ٣/١٣٣.

(٣) قال النويري : الغز وهم جنس من الترك (كان منهم ملوك السلاجقة والهياطلة والخلج وبلادهم الصفد ويسمون بها أيضاً، والغور والعلان - ويقال الألان، والشركس والازكش والروس، فكلهم من جنس الترك نسبهم داخل في نسبهم)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ١/٢٦.

هذا من أمراء الغز فأكرمهم الخليفة الموحيدي ، وأقطع شعبان الغزي ((بالأندلس قرى كثيرة تغل في كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار...))^(١) ، وأشار ابن سعيد إلى أن شعبان الغزي كان والياً على مدينة بسطة^(٢) ، كما ذكر المقرئ شعبان بالقول: ((ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا ، من غز الموصل ، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحيدين ، ورفع له أمداحاً جلييلة ، وقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس))^(٣) ، وأضاف المقرئ أيضاً إلى أن الغزي هذا كان شاعراً ، ومن شعره:

يقولون إن العدل في الناس ظاهرٌ

ولم أر شيئاً منه سرّاً ولا جهراً

ولكن رأيت الناس غالب أمرهم

إذا ما جنى زيداً أقادوا به عمرا

ولأفما بال أنطاسي^(٤) كلما

شكوت له يمتنى يدي فصداً اليسرى^(٥)

(١) المعجب، ص ٢١٠.

(٢) المغرب في حلى المغرب، ٧٧/٢.

(٣) نضح الطيب، ١٣٣/٣.

(٤) أنطاسي هو العالم الحاذق بالطب، ينظر: الزبيدي، تاج العروس،

٥٥٥/١٦ - ٥٥٦ (مادة نطس).

(٥) نضح الطيب، ١٣٤/٣.

ولما كان ورود شعبان الغزي من مصر إلى المغرب على قول المراكشي بين سنتي ٥٨٣هـ/١١٨٧م أو ٥٨٢ هـ/١١٨٦م ، فالراجح أن ولايته لمدينة بسطة في حدود سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ، وجدير بالذكر هنا أن المراكشي كان من الأصدقاء المقربين من شعبان الغزي والي بسطة ، وقد امتدحه بالقول: ((ولم يرد المغرب من هذه الطائفة - أعني الغز- أطف حساً ولا أزكى نفساً ولا أحسن محاضرة ولا أطيّب عشرة من شعبان هذا المذكور ، ما لقيته إلا استنشدي أو أنشدني ، أنشدته يوماً لشاعر من أصحابنا من أهل إشبيلية:

وقائل: فِيمَ لَمْ تَهْجِعْ؟ فَقُلْتَ لَهُ:

كيف الهجوع لطرف نافر الوَسَن

لم تدر أن الكَرَى الممنوع عن بصري

هي السُّنات التي في مقلتي حسن

فضحك وقال: لقد حوّم هذا الشاعر وما ورد ، ورفرف فما طار ، وأراد غاية فوقع دونها ، ولله من آثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب

وردوا رُقادي فهو لِحْظ الحبائب

قلت: هو أبو الطيب. قال لي: نعم ، هو الطيب أبو الطيب ، وأنشدته يوماً-وقد جرى ذكر التجنيس اللفظي^(١) ، فأنشد هو منه وأكثر:-

(١) التجنيس اللفظي هو اتفاق الكلمتين في كل الحروف أو أكثرها مع=

إذا صال ذوود صديقه

فيا أيها الخُلُّ المصاحب لي صلُّ بي

فإني مثل الماء لينا لصاحبي

وناهيك للأعداء من رجل صُلِّب

فاستحسنهما وكتبهما عنده ، وقال لي رحمه الله: لك عليّ بهذين البيتين حق ، فما وافقني شيء من الشعر في هذا المعنى ولا في غيره ولا وقع مني موقعهما ، وفي الجملة كان له شغف بالأدب شديد ، وكان يقرض شيئاً من الشعر ، وربما ندرت له الأبيات الجيدة ، سألته أن يكتب لي شيئاً من شعره أو ينشدني ، فأبى عليّ كل الإباء ، وحلف لا يفعل^(١).

ولكن المصادر المتوفرة بين أيدينا لم تشر إلى مدة ولايته لمدينة بسطة ، ولكنها ذكرت أن في عهد المنصور الموحدي خرج ثائر يدعى أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيري بالمغرب ثم عبر إلى الأندلس وبقي مدة في مدينة بسطة حتى تمكنت السلطات الموحدية من القبض عليه وقتله ، وهناك روايتان بخصوص الثائر الجزيري هذا ، أحدهما ذكرها ابن عذاري وملخصها أن هذا الثائر ظهر بمراكش وتظاهر بالعلم وكان يعمل على تأويل الروايات ويحفظ

= اختلاف المعنى، ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ١/١٤٠

(مادة الجناس).

(١) المعجب، ص ٢١٠- ٢١١.

المتشابهات فطرته قوات الخليفة المنصور الموحي فأخذ يتجول في الأقطار ويبث دعوته بين العامة وظهر بمراكش وحاولت الدولة القبض عليه ولكنه أفلت إلى الأندلس فكتب المنصور إلى ولايتها بصفته وهيئته وأمرهم بالقبض عليه أينما وجد ، وذاعت حوله أقوال وروايات خرافية منها أنه كان ساحراً ويتصور في صور الحيوانات ، ثم إنه قبض عليه بالمقعة وقدم للقضاء إلا أنه تمكن من الهرب بعد أن رشأ القاضي وقُتل بسببه خلق كثير من الناس ، وأخير قبض عليه بالقرب من مرسية فقتل وصُلب^(١) ، وأشار عنان إلى أن هذه الرواية تمثل وجهة النظر الرسمية^(٢) التي عملت على النقص منه وتشويه صورته.

أما الرواية الأخرى وردت عند ابن سعيد والمقري ، فذكر ابن سعيد أن الجزيري كان بارعاً في العلم أراد إحياء سنة المهدي بن تومرت^(٣) لأن أصحابه غيروا وبدلوا سنته إذ قال: ((أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الجزيري برع في العلم وجمال وثار في رأسه أن

(١) البيان المغرب، قسم الموحيين، ص ٢٠٧- ٢٠٨.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/١٨٠.

(٣) محمد بن تومرت من أهل السوس ومن قبيلة هرغة البربرية رحل لطلب العلم بالشرق ثم عاد إلى المغرب وأسس دولة الموحيين وتسمى بالمهدي والمعصوم، وخاض العديد من المعارك ضد المرابطين حتى وفاته سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م، ينظر: البيهقي أخبار المهدي بن تومرت، ص ١١- ٤٢؛ المراكشي، المعجب، ص ١٣٦- ١٥٤؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٧٢- ١٨٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٦١٢- ٦١٧.

يحيى سنة مهدي الغرب وزعم أن أصحابه غيروا أمره وقال: في أم رأسي سرّ ، يبدو لكم بعد حين... واشتهر أمره وعظم في النفوس خبره ووضعت عليه العيون في جميع بلاد بني عبد المؤمن وشاع عند الناس أنه يتصوّر في صورة قطّ وكلب وكانت العامة ترجم الكلاب والسنانير بسبب ذلك إلى أن قبض عليه في عمل بسطة وحمل رأسه إلى مراکش^(١).

وكانت رواية المقري أكثر تفصيلاً من رواية ابن سعيد وأقرب للواقع إذ قال: ((قال الثائر أبو عبد الله الجزيري:

في أم رأسي سرّ يبدو لكم بعد حين
لأبلغن مرادي إن كان سعدي معيني
أولا فأكتب ممن سعى لإظهار دين

وسبب قوله هذا أن بني عبد المؤمن لما غيروا رسم مهديهم ، وصيروا الخلافة ملكاً ، وتوسعوا في الرفاهية ، وأهملوا حق الرعية ، جعل يتستر ، وقال هذه الأبيات ، وشاع سرّه في مدة ناصر بني عبد المؤمن ، فطلبه ، ففر ، ولم يزل يتنقل مستخفياً مع أصحابه إلى أن حصل في حصن قولية من عمل مدينة بسطة ، فبينما هو ذات يوم في جامعها مع أصحابه وهم يأكلون بطيخاً ويرمون قشره في صحن الجامع ، إذ أنكر ذلك رجل من العامة ، وقال لهم: ما تتقون الله تعالى! تتهاونون ببيت من بيوته فضحكوا منه ، واستهزأوا به ، وأهل

(١) المغرب في حلى المغرب، ١/٣٢٣ - ٣٢٤.

تلك الجهة لا تحتمل شيئاً من ذلك ، فصاح بفتية من العامة ، فاجتمع جَمَعٌ وحمّلوا إلى الوالي وكان عند الوالي من عرفه ، فقتلوا جميعاً ، وأمر الناصر أن يرفع عن جميع أرض قولية جميع تكاليف السلطان))^(١).

والراجح أن الوالي آنذاك كان شعبان الغزي الذي كان من المقربين من الخليفة المنصور الموحدي ، وأنه على قول المراكشي كان قد أترى من ولايته على مدينة بسطة^(٢) ، ولعل هذا الثراء كان بسبب إرهاقه الناس من الضرائب ، لذا نرى أن الخليفة أمر أن يُخفف عن جميع قولية (وهي من عمل بسطة) تلك الضرائب.

وذكر ابن عذاري أن الخليفة الناصر الموحدي (٥٩٥-٦١٠هـ / ١١٩٨-١٢١٣م) أمر في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م بنقل والي إشبيلية الشيخ أبي عبد الله بن أبي يحيى^(٣) إلى مدينة بسطة وولى على إشبيلية عمّه السيد أبا إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن^(٤) ، والراجح أن ذلك التغيير في ولاية بسطة كان بسبب وفاة عاملها شعبان الغزي ،

(١) نضح الطيب، ٦٥/٤ - ٦٦، إلا أنه جعل خروج الثائر الجزيري في عهد الخليفة الناصر الموحدي.

(٢) المعجب، ص ٢١٠.

(٣) هو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص عمر الهمنتاتي كان الأخير من أصحاب المهدي بن تومرت، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحديين، ص ٢٤٩، ٢٥٧.

(٤) البيان المغرب، قسم الموحديين، ص ٢٤٢.

فقد أشار المراكشي أن الغزي توفي في حياته^(١) وأنه توقف في أحداث كتابه عند سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م^(٢)، ويبدو أن أبا عبدالله بن أبي يحيى بقي في بسطة حتى نُقل سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠ م إلى غرناطة^(٣)، ولعله أضيفت إليه مدينة بسطة وذلك لقربها من غرناطة.

وفي عهد الخليفة الناصر الموحي أيضاً شارك أهالي مدينة بسطة في الحملة العسكرية التي قادها خلال غزوته لبلاد المغرب سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، حالها حال المدن الأندلسية الأخرى، فعندما وصل الخليفة إلى المغرب سار إلى مدينة تلمسان^(٤)، واستقر بها لبعض الوقت، أنفذ منها الأوامر إلى ولاية إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة والمرية ومرسية، لموافاته مع أتباعهم، ولعل حملته هذه حققت بعض النجاحات^(٥).

وبعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب^(٦) سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، تغير ميزان القوى في الأندلس، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى^(٧)، إذ استولى

(١) المعجب، ص ٢١١.

(٢) المعجب، ص ٢٧٠.

(٣) ابن عناري، البيان المغرب، قسم الموحيين، ص ٢٥٧.

(٤) وهي قاعدة بلاد المغرب الأوسط تقع في سفح جبل بينها وبين وهران مرحلتان، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٥.

(٥) ابن عناري، البيان المغرب، قسم الموحيين، ص ٢٤٩.

(٦) وهو موقع يقع بين جيان وقلعة رباح، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦.

(٧) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر: المراكشي، المعجب، =

النصارى مباشرة بعد ذلك على مدينتي بسطة وباغو^(١) ، وهذا ما أكده الحميري بقوله: ((ثم استولى الروم بعد ذلك على مدينة بسطة وياغو وما جاورهما من القرى والحصون ، وقتلوا الرجال وسبوا الذرية وكانت هذه الواقعة أول وهن دخل على الموحدّين ،...))^(٢).

ولكن النصارى لم يتمكنوا من الاحتفاظ بالمناطق التي دخلوها في أعقاب هزيمة المسلمين في موقعة العقاب ، ويشير عنان إلى سبب ذلك قائلاً: ولكن مصاعب التموين كانت تتفاقم ، وقد سادت الفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التي غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى في قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة في موكب ملوكي ضخم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر^(٣).

بعد هزيمة الموحدّين في العقاب دخلت دولتهم في مرحلة من الضعف والانحلال ، فشب صراع داخلي على السلطة بين أسرة بني عبد المؤمن ، وفي الأندلس تحفرت القوى المحلية للانفراد بالسلطة في

=ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ - ٤١٧؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٧٠؛ الحجّي، التاريخ الأندلسي، ص ٤١٩ وما بعدها.
(١) ويطلق عليها أيضاً باغة، وهي مدينة أندلسية من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٤؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٢.

(٢) الروض المعطار، ص ٤١٦.

(٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/ ٣٢٤.

مختلف المناطق والثورة على الموحدين على نفس الصورة التي جرت في أواخر عهد المرابطين ، وبخصوص مدينة بسطة فقد تأثرت بما جرى من منافسات بين أبناء بني عبد المؤمن ، فتولى حكم الدولة الموحدية بعد وفاة الخليفة الناصر ابنه المستنصر بالله^(١) الذي حكم حتى سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م إذ توفي فجأة فبايع أهل مراكش عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ/ ١٢٢٣-١٢٢٤م) بالخلافة فعارض بيعته ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على مرسية بالأندلس فدعا أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك في سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م وتلقب بالعدل (٦٢١-٦٢٤هـ / ١٢٢٤-١٢٢٦م) وسار إلى إشبيلية وأخذ في تدبير الأمور ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والآخر في إشبيلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ذلك أن ابن عمّ العدل أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي خلع بيعة العدل ودعا لنفسه خليفة للموحدين وأطاعه أهل جيان وأبدة وبياسة^(٢) ، بعدها قرر البياسي بعد أن فرض سيطرته على معظم مناطق الأندلس الوسطى ، أن يستولي على إشبيلية ويقضي على منافسه نهائياً ، فخرج بقواته صوبها سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م فاستعد الجيش الموحي للقاءه ونشبت معركة هُزم

(١) تولى الخلافة في الدولة الموحدية للمدة (٦١٠ - ٦٢٠هـ/ ١٢١٣ - ١٢٢٣م)،

ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٢٤١- ٢٤٣.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

فيها البياسي ، ومزق جيشه ، وارتد إلى قرطبة الذين ثاروا عليه وقتلوه في نفس السنة أعلاه^(١) ، والراجح أن مدينة بسطة قد دخلت هي الأخرى في طاعة البياسي طيلة مدة حكمه ، وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك بصورة غير مباشرة بقوله: ((قام عبد الله البياسي بالأندلس وكان العادل ولاء قرطبة ، فنخلع دعوة العادل ، وخرج عن طاعة الموحدين ، واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وأدخلهم قيجاطة^(٢) وغيرها من بلاد المسلمين ، فتملكوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحريم والأولاد ، ثم دخل بهم حصن باجة ولوشة وغيرها من الحصون الإسلامية ، ...))^(٣) ، ويلاحظ هنا أن مدينة بسطة تقع بين مدينتي قيجاطة ولوشة^(٤).

رابعاً: مدينة بسطة في عهد بني الأحمر (بنو نصر) (Nazaritas, Los)
ولكن اضطراب الأمور في الدولة الموحدية أدى إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس لاسيما في وسط وشرق الأندلس ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمدينة بسطة فإن أشهرها تلك التي قادها محمد بن

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٢٧٤.

(٢) قيجاطة مدينة أندلسية من أعمال مدينة جيان، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٨.

(٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١.

(٤) ينظر الخارطة.

يوسف بن هود الجذامي^(١) ومحمد بن يوسف بن الأحمر^(٢) ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق كما حاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي أكبر الثوار الذي سيوحّد الأندلس على يديه ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله: ((وصرح له تملك الأندلس ، وأطاعته سبته ، وملك رباط الفتح))^(٣) ، كما ذكر ابن أبي زرع أنه في سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠م ملك الأندلس ابن هود ولم يبق للموحدين فيها أمرٌ ولا نهْيٌ^(٤) ، كما ذكر عنان أن دعوته شملت أيضاً أرجونة Arjona وجيان

(١) وهو من سلالة بني هود حكام سرقسطة ملك مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية بعد انقراض دولة الموحدين وأعلن الخطبة العباسية، وكانت وفاته سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م، ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٨- ٢٨٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٦- ٢٥٠ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٤- ٢٦٦ .

(٢) محمد بن يوسف بن الأحمر النصري من سلالة الصحابي سعد بن عبادة الأنصاري ظهر في أواخر الدولة الموحدية في الأندلس وخضعت له العديد من المعامل الجنوبية ومنها غرناطة، وأخذ سلطانه يتسع بعد وفاة ابن هود، وتمكن من تكوين مملكة له وراثية استمرت حتى نهاية الإسلام في الأندلس، وكانت وفاته سنة ٦٧١ هـ/ ١٢٧٢م، ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣/٢ وما بعدها؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٧- ٢٦٩ .

(٣) أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٨؛ ينظر أيضاً: الإحاطة، ٢/ ٧٦ .

(٤) الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ .

وبسطة ووداي آش^(١) ، وعلى هذا فإن مدينة بسطة كانت ضمن دولته.

إلا أن الذي خطف من ابن هود أماله هو ظهور الثائر الآخر من بني نصر وهو محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالغالب بالله الذي يرجع نسب عائلته كسادة على حصن أرجونة^(٢) الواقعة على مقربة من نهر الوادي الكبير Rio Guadalquivir ، وكان لبني نصر في تلك المنطقة عصبية ووجاهة ، فلما اضطرت الأمور في الدولة الموحدية وظهر ابن هود في شرق الأندلس ، لاحت لمحمد بن يوسف ابن الأحمر فرصة الظهور ، فدعا لنفسه وبويع أولاً في أرجونة موطن أسرته وأنصاره وفي المناطق القريبة منها وذلك سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م ، وقد أشار إلى ذلك ابن عذاري بقوله: ((وفي هذه السنة كان ابتداء ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر ببر الأندلس ، بويع بأرجونة وهي بلده إذ كان فيها منشأه ومولده ، وكان بطلاً شجاعاً ، فأورثه ذلك سموً وارتفاعاً ، وكان هذا محمد بن يوسف مطابقاً لابن هود في اسمه واسم أبيه مفارقاً له في اللقب فهذا لقبه الغالب بالله ، وذلك لقبه المتوكل على الله ، وابن هود خرج على الموحديين وان الأحمر خرج على ابن هود...))^(٣).

(١) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤١٠.

(٢) بلد ناحية جيان بالأندلس، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص

٢٥.

(٣) البيان المغرب، قسم الموحديين، ص ٢٩٦.

ومن أرجونة أخذ ابن الأحمر يوسع نفوذه ، ففي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م تمكن من الدخول إلى مدينة جيان وقرطبة وبعض مناطق غرب الأندلس^(١) ثم أطاعته أهالي مدينتي بسطة ووادي آش^(٢) ، وهكذا قوى أمره وأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية ، وأراد أن يستغل بلواء سلطة إسلامية مرموقة ، فدعا أولاً للأمير أبي زكريا الحفصي^(٣) صاحب إفريقية ، وتلقى منه بعض العون ، ولكنه عاد فخطب للخليفة العباسي المستنصر بالله^{(٤)(٥)} .

ويبدو أن ابن هود شعر بخطورة هذه الحركة التي يضطلع بها منافسه الجديد ، فأخذ يتأهب لمواجهة والقضاء على حركته ، كما أن ابن الأحمر كان مستعداً لمواجهة ابن هود لكي يكون هو على رئاسة الأندلس ، وقد عقد ابن هود هدنة مع ملك قشتالة Castilla من أجل التفرغ لمعركته الداخلية ، في حين عمل ابن الأحمر على

(١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٦/٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤١٥ .

(٣) هو أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي بويغ له بالخلافة في الدولة الحفصية سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م وتوفي سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م، ينظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٤) تولى الخليفة المستنصر بالله الدولة العباسية للمدة من ٦٢٣ - ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م، ينظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٥٤٤ - ٥٤٨ .

(٥) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢١٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٣١ - ٤٣٢ .

تقوية جانبه بالتفاهم مع أبي مروان أحمد بن محمد الباجي^(١) المتغلب على إشبيلية ، وذلك بأن عقد معه حلفاً ، وصاهره على ابنته ، واتفق الاثنان على مقاومة ابن هود ومحاربتة^(٢) .

وقد تأهب الطرفان للمواجهة العسكرية ، وحشد كل منهما ما استطاع من قواته ، وحدث الصدام على مقربة من إشبيلية ، وانتهت المعركة بهزيمة ابن هود وانتصار ابن الأحمر والباجي سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م ، ودخل ابن الأحمر إشبيلية ثم غدر بالباجي وقتله ، وحاول أن ييسط سلطانه على المدينة ولكنه لم يلبث فيها إلا سيراً إذ ثار به أهل إشبيلية وأخرجوه منها وأرسلوا إلى ابن هود الذي سارع بإرسال أخيه سالم ليضطلع بولاية إشبيلية مرة أخرى^(٣) ، وقد تحدث ابن أبي زرع عن هذه المواجهة بقوله: ((وفي سنة إحدى وثلاثين وستمئة وقعت المقاتلة بين ابن الأحمر وابن هود والباجي على مقربة من إشبيلية فهزماه))^(٤) .

(١) ذكر ابن عذاري أن أهالي مدينة إشبيلية طردوا الوالي الموحدى سنة ١٢٣١م ونصبوا عليهم أبا مروان الباجي يرجعون إليه في رأيه ثم بايعوه وبقي فيهم حتى قتل سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥م، ينظر: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦ .

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٠٣ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤١٥ .

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦، ٣٠٩ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢١٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤١٥ - ٤١٦ .

(٤) الأنيس المطرب، ص ٢٧٦ .

ويبدو أن الأمور قد تغيرت فيما بعد ، إذ أدرك الطرفان خطر الحرب فيما بينهما ، وأن الاستفادة الوحيد من ذلك هم النصارى الممثلين بمملكة قشتالة ، لذا عقدا الصلح بينهما في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م ، وكان من نتائج هذا الصلح أن يعترف ابن الأحمر بطاعة ابن هود مقابل أن يقره الأخير على جيان وأرجونة وبركونة Porcuna وأحوازها^(١) ، ولكن سقوط قرطبة بيد النصارى سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م^(٢) ، دفعت ابن الأحمر إلى الزحف نحو غرناطة ودخلها سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م واتخذها قاعدة للملكة^(٣) ، وبذلك غدت المنطقة من جيان إلى غرناطة تحت نفوذه وبضمنها مدينة بسطة. ومما زاد في نفوذ ابن الأحمر مقتل محمد بن هود في السنة نفسها^(٤) ، وما كاد يسمع بذلك حتى غدا مسرعاً إليها (أي غرناطة)

(١) ابن أبي زرع، الأنييس المطرب، ص ٢٧٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٦/٤ .

(٢) ينظر عن سقوط قرطبة : الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١ ؛ ابن أبي زرع، الأنييس المطرب، ص ٢٦٧ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٨/٤ - ٤٢٥ .

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ - ٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤ .

(٤) ينظر عن مقتل محمد بن هود : ابن عسكروابن خميس، أعلام مائقة، ص ١٧٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤١ - ٣٤٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٧٦/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٦ ؛ عنان =

وضمها إلى نفوذه^(١) ، ثم دخلت مالقة Malaga في طاعته في العام التالي (أي سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م)^(٢) ، وبذلك أصبحت مدينة بسطة تابعة إدارياً لغرناطة عند قيام سلطتها(٦٣٥-٦٨٩٧هـ / ١٢٣٧-١٤٩١م) ، وقد حدد عنان سلطان مملكة بني الأحمر عند قيامها بقوله: كانت مملكة غرناطة عند قيامها في أواسط القرن السابع الهجري تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر الوادي الكبير إلى الجنوب ، حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ويحدها من الشمال ولايات جيّان وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب ، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة ، وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة ، وهى ولاية غرناطة الواقعة في الوسط ، والممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة غرناطة ، ووادي أش وبسطة وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحة والمنكب وشلوبانية ، وولاية المريّة وهى تمتد من ولاية مرسية حتى البحر ، وأهم مدنها ثغر المريّة وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندَرش ، وولاية مالقة ، وهى تقع على البحر غربي غرناطة ،

=دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٧٧.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ ؛ ابن خلدون، العبر،

٤/٢١٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٣٠

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في

الأندلس، ٤/٤٣٠.

وأهم مدنها ثغر مالقة ، ويلش مالقة وطرُش وقمارش وأرشدونة وأنتقيرة ورندة ومربلة ، ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف^(١).

كما أكد ابن الخطيب بتبعية مدينة بسطة إلى غرناطة بقوله: ((وتوسط المملكة ، ممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة نفسها ، ووادي آش أو وادياش ، والحامة ، ولوشة ، وأرحبية ، وأشكر ، وحصن اللوز ، وبسطة ، وشلوبانية ...))^(٢).

إن من أهم ما يميز مدينة بسطة في عهد بني الأحمر هي تحولها إلى ثغر^(٣) ما تطلب ضرورة إقامة وسائل الدفاع لحمايتها من هجمات النصارى المجاورين لها ، ومن أهمها الأسوار والخنادق ، وقد جاء ذكر أسوارها عند ابن الخطيب الذي زار المدينة عدة مرات ، وتحدث عن سور المدينة وخندقها فقال: ((... ، فأسوارها تسجد عند الإقامة ، وخندقها لانكسارها تلقامه ، فهي لذلك غير دار مقامه))^(٤) ، كما وصف حصونها في مكان آخر بقوله: ((... ، وتباهت بحصونها مباهاة الشجرة السماء بخصونها ...))^(٥) ، وهو ما تطلب أن ترابط بها حامية عسكرية تكون مستعدة ومتيقظة على مدار الوقت

(١) دولة الإسلام في الأندلس، ٥٥/٥.

(٢) كناسة الدكان، ص ١٧.

(٣) ينظر خارطة دولة بني الأحمر.

(٤) ريحانة الكتاب، ٢/٢٩٣؛ خطرة الطيف، ص ٨٤.

(٥) ريحانة الكتاب، ٢/٢٥١.

بسبب تربص النصارى بها ومحاولاتهم العديدة لاجتياحها ، وقد أدى ذلك إلى هجرة العديد من سكانها ، ومن تبقى فيها كان في قلق دائم ومُتَحَسِّبٍ لأي طارئ ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: ((... ، وحميتها تنظر إلى الهياج من خلف سياج ، والعدو فيها شديد الفتكات معمل الحركات ، وساكنها دائم الشكاة ، وحدها قليل^(١) ، وأعيانها قليل وعزیزها المتوقع المَكْرُوه ذليل))^(٢) ، كما وصف ابن الخطيب حال حصن أشكر ، وهو أحد حصون مدينة بسطة المطل عليها ، وما يعانیه الأهالي هناك من الخوف والقلق بسبب تربص النصارى بهم ، بقوله: ((... ، إلا أن معقلها لا يمنع ، ومكانها يجوم عليه الحادث الأشنع ، ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يَصْنَع))^(٣).

وهكذا فقد حتم عليها موقعها الثغري أن تعيش طيلة عهد بقائها في ظل دولة بني الأحمر في حالة حرب شبه مستمرة ، ففي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م دخل حاكم مدينة لورقة المسلم محمد بن علي بن أحلى^(٤) تحت نفوذ ملك قشتالة ودان بالتبعية

(١) قليل من الفل وهو المنهزم، والقليل ناب البعير إذا انكسر منه شيء، ينظر: الفراهيدي، العين، ٣١٦/٨ (مادة فل).

(٢) ريحانة الكتاب، ٢٩٣/٢.

(٣) خطرة الطيف، ص ٨٤ ؛ معيار الاختيار، ص ١١٠.

(٤) هو محمد بن علي بن أحلى قيل إنه من المولدين وقيل إنه من الأنصار، اشتهر بالتصوف وعلم الكلام وله في ذلك مصنفات عدة، تغلب على حكم =

له^(١)، والمعروف أن لورقة تقع إلى الشمال قليلاً من مدينة بسطة، وذلك فقد أطلت قوات قشتالة عليها من الجهة الشمالية الشرقية، وفي سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م أعطى ابن الأحمر جيان وبركونة وأرجونة للنصارى وصالحهم على ذلك مقابل تأمين غرناطة^(٢)، وفي سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م تنازل ابن الأحمر لملك قشتالة عن عدد كبير من الحصون والمدن الأندلسية ذكر ابن عذاري أن عددها بلغ مائة وخمسة قال: ((قيل إن أكثرها كان في شرق الأندلس، وفي غربها كان الأقل))^(٣)، فيما ذكر ابن أبي زرع أن ابن الأحمر أعطى ملك قشتالة ((أربعين مسوراً من بلاد المسلمين منها شريش والمدينة والقلعة، وقيل إن جملة ما أعطاه ابن الأحمر لأذفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمسة مسورات من بلاد شرق الأندلس))^(٤)، وعلى إثرها رثى الفقيه صالح بن

-
- = لورقة بعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس، وصالح ملك قشتالة ودخل في طاعته حتى وفاته سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م، ينظر: ابن الأبار، الحلة السيرة، ٢١٤/٢؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٣٨/٦ - ٤٣٩؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية سلسلة رقم ٣، ص ٢٨٤ - ٢٨٧.
- (١) ابن الأبار، الحلة السيرة، ٣١٤/٢؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم ٣، ص ٢٦٨.
- (٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٠٧؛ ابن أبي زرع الذخيرة السنية، ص ٦٨؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣/٥.
- (٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٦٣.
- (٤) الذخيرة السنية، ص ١١٢.

شريف الرندي^(١) الأندلس بقصيدته المشهورة التي افتتحها بقوله:

لكل شيء إذا ماتم نقصان
فلا يغربطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
يُمزق الدهر حتماً كل سابعة
إذا نبت مشرفيات وخرصان^(٢)

وبذلك فقد أطلت قوات قشتالة على مدينة بسطة من الجهة الشمالية الغربية ، وأضحت المدينة وبعض حصونها ولاسيما حصن أشكر(طشكر) شجاً في حلق نصارى قشتالة.
وفي عهد السلطان محمد الفقيه(٦٧١-٧٠١ هـ/١٢٧٢-١٣٠١م) عمل على استعادة مدينة قيجاطة القريبة من حصن أشكر(طشكر) إلى

(١) هو أبو الطيب صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، كان فقيهاً حافظاً متفنناً في النثر والنظم، وله مريثة الأندلس، توفيت سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م، ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٧٥/٣- ٢٨٧.

(٢) ينظر القصيدة كاملة: ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية، ص ١١٢- ١١٤؛ المقري، أزهار الرياض، ٤٧/١ - ٥٠؛ نصح الطيب، ٤٨٧/٤ - ٤٨٨.

الشمال من بسطة واستولى عليها وعلى عدد من الحصون القريبة منها وأسكنها المسلمون^(١) ، وفي سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م واصل زحفه حتى وصل إلى مدينة القبذاق^(٢) قرب قرطبة وفتحها هي الأخرى^(٣) ، وبذلك تأمنت الحدود الشمالية لمدينة بسطة.

إلا أن قوات مملكة قشتالة عادت مرة أخرى في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل الأول (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٣-١٣٢٤م) في مهاجمة الحدود الشمالية لدولة بني الأحمر ، ففي سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م هاجمت قوات ملك قشتالة عدد من الحصون الواقعة شمال مدينة بسطة ومنها حصن طشكر التابع لبسطة وتمكنوا من السيطرة عليها بعد أن هزموا المسلمين فيها ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله ؛ ((... ، وظهر العدو بعدها على حصن قنيل - أو قنيل - وحصن متمانس وحصن نجيج وحصن طشكر وحصن روط))^(٤).

وقد حفز هذا النصر قشتالة على الزحف إلى غرناطة نفسها واستئصال المسلمين بها ، وفعلاً حشدوا أعداداً كبيرة من القوات

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٢٩/١ ؛ اللمحة البدرية، ص ٤١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٧٠.

(٢) وهو حصن كبير يقع على سفح جبل على مرحلة من جيان، ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧١/٢.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٧٠.

(٤) اللمحة البدرية، ص ٧١ - ٧٢؛ الإحاطة، ٢٠٨/١.

منها فرقة من المتطوعة الانكليز ، وزحفوا على مدينة غرناطة وفي ظاهر المدينة في ربيع الثاني من سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م التقى الطرفان في معركة حامية تمكن المسلمون من هزيمة الجيش القشتالي وحلفائه وقتل عدد كبير منهم وأسر أعداداً أخرى^(١).

وكان من أهم نتائج هزيمة الجيش القشتالي أن عمل السلطان إسماعيل بن الأحمر على فتح المدن والحصون التي كان قد استولى عليها النصارى سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م ، ومن أهمها حصن طشكر ، ففي شهر رجب من سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م ، تحرك السلطان بقواته إلى حصن طشكر وتمكن من هزيمة القوات القشتالية ودخوله على الرغم من منعته وعمل على تحصينه وشحنه بالمقاتلين واشترك بنفسه في عمل خندق له ، وقد عزا ابن الخطيب قوة الجيش الغرناطي إلى استخدام ما يمكن أن يسمى بالمدافع التي تقذف النار على الأبراج فتمكنت من إشعال النار فيها ، وهو ما ألقى الرعب في نفوس المدافعين عنه ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله: ((واستقامت الأيام ، وهلك المخلوع^(٢) ، فصفا الجو ، وأتحدت

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٠٨/١؛ اللمحة البدرية، ص ٧٢؛ ابن خلدون، العبر، ٣٣١/٧؛ المقرئ، نضج الطيب، ٤٥٠/١ - ٤٥١؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١١٨/٥.

(٢) يقصد بالمخلوع هنا هو سلطان غرناطة أبو الجيوش نصر بن محمد بن الأحمر الذي تولى حكم دولة غرناطة للمدة من ٧٠٨ - ٧١٣هـ/ ١٣٠٨ - ١٣١٣م وكان خلعه على يد أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، ينظر: ابن الخطيب=

الكلمة ، وأمکن الجهاد ، فتحرك في شهر رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة ، وأعمل القصد إلى بلاد العدو ، ونازل حصن إشكر ، الشجويّ المعترض في حلق بسطة ، فأخذ بمخنقه ، ونشر الحرب عليه ، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محمّاة طاق البرج المنيع من معقله ، فاندفعت يتطاير شررها ، واستقرت بين محصوريه ، فعاثت عياث الصواعق السماوية ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، وأتوا بأيديهم ، ونزلوا قسراً على حكمه في الرابع والعشرين من الشهر ، وأقام بظاهره ، فصير دار جهاد ، وعمل في خندقه بيده ، وانصرف ، فكانت غزاة جمّة البركة عظمت بها على الشرق الجدوى ، وأنشد الشعراء في هذه الوجهة قصائد أشادت بفضلها ، وشهت من ذكرها ،...))^(١).

وعلق عنان على استخدام الأندلسيين في عهد بني الأحمر للمقدوفات النارية والحديدية بقوله: وظهرت براعة الأندلسيين في استعمال هذه الآلات في عدة مواقع ، ففي حصار بياسة في سنة ١٣٢٣م/٧٢٤هـ في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل الأول ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع^(٢) ، وقد وصف الشاعر يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي^(٣) تلك

=اللمحة البديرية، ص ٥٧ - ٦٣؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٧٠.

(١) الإحاطة، ٢٠٨/١ - ٢٠٩؛ اللمحة البديرية، ص ٧٢.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٢/٥.

(٣) هو أبو زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي شيخ الوزير نسان الدين =

المقذوفات الشبيهة بالمدافع التي استخدمها أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر في فتحه لحصن طشكر عند مدحه للسلطان بقوله:

وظنّوا بأنّ الصّعق والرّعد في السما

فحاق بهم من دونها الصّعق والرّعد

غرائب أشكال سما هرمس بها

مهتّمة تأتي الجبال فتنهدّ

إلا إنها الدنيا تريك عجائباً

وما في القوى منها فلا بدّ أن يبدو^(١)

وفي عهد أبي الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥ هـ/ ١٣٣٢-١٣٥٤م) كان سكان مدينة بسطة وحصونها وقراها تعاني الأمرين من غارات النصارى ، ففي محرم من سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م قام السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بزيارة إلى حدود دولته الشمالية الشرقية بصحبة وزيره لسان الدين بن الخطيب ، وقد سجل ابن الخطيب وصفاً دقيقاً لما كان يعانيه سكان تلك المناطق من غارات النصارى ، وكان من ضمن المدن التي مرّ بها الوفد السلطاني مدينة بسطة وحصن برشانة التابع لها ، وعند وصولهم إلى

= ابن الخطيب وهو شاعر وأديب وله ديوان شعري يسمى السليمانيات توي في سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٢٥ م، ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٣٤/٤ - ٣٤٤؛ المقري، نضج الطيب، ٤٨٧/٥ - ٤٩٧.

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٠٩/١.

مدينة بسطة جرى لهم استقبال حافل من قبل السكان هناك ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله: ((... ، فوقع النفير وتسابق إلى لقائنا الجَم الغفير ، مثل الفرسان صفًا ، وانتشر الرَّجُل جناحاً ملتقاً ، واختلط الولدان بالولائد ، والتمايم بالقلائد في حفل سلب النهى وجمع البدر والسهى والضراغم والمها ، وآلف بين القاني والفاقع ، وسدّ بالمحاجر كوى البراقع ،...))^(١) ، وأضاف عن حالة المدينة الأمنية قائلاً: ((... ، وحميتها تنظر إلى الهياج من خلف سياج ، والعدو فيها شديد الفتكات معمل الحركات ، وساكنها دائم الشكاة ، وحدها قليل ، وأعيانها قليل وعزيزها المتوقع المكروه ذليل ،...))^(٢).

وفي حصن برشانة كان لهم استقبال حافل أيضاً وصفه ابن الخطيب بقوله: ((وطالعا برشانة حرسها الله ، فحيّتنا ببواكر الورد ، ونضت عنا برود البرد ، وشملتنا بالهواء المعتدل ، وأظلتنا برواقها المنسدل ، بلد أعيان وصدور ، ومطلع نجوم ويدور ، وقلعة سامية الجلال ، مختمة بالكواكب متوجة بالهلال ، حللناها في التبريز الحفيل ، والمشهد الجامع بين الذرة والفيل ، حشر أهلها بين دان ونازح ، ومثل حاميتها من نابل ورامح ، فكان ذلك المجتمع عيداً ، وموسماً سعيداً ،...))^(٣) ، كما وصف الحالة الأمنية لحصن أشكر

(١) خطرة الطيف، ص ٣٧.

(٢) ريحانة الكتاب، ٢/٢٩٣.

(٣) خطرة الطيف، ص ٤٠ - ٤١؛ ريحانة الكتاب، ٢/٢٥٤.

(طشكر) وهو من حصون مدينة بسطة المتقدمة قائلاً: ((...، إلّا أن معقلها لا يَمْنَع، ومكانها يحوم عليه الحَادِثُ الأَشْنَع، ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع))^(١).

إذن فمدينة بسطة وحصونها في منتصف القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي شهدت انخفاضاً كبيراً في عدد السكان بسبب التهديدات الأمنية من قبل النصارى، والباقون منهم في حالة استنفار يتوقعون الهجوم عليهم في كل لحظة، فضلاً عن أن الحامية العسكرية فيها في حالة تحسّب وترقّب يستفزها كل صوت يأتي من خارج الأسوار، إلا أن السكان الباقون مع ذلك كلّه كانوا يزاولون حياتهم الاعتيادية مستسلمون لقدر الله بهم.

وقد شهدت الحدود الشمالية الشرقية لسلطنة غرناطة نوعاً من الهدوء النسبي قياساً إلى الحدود الغربية والشمالية الغربية، يبدو أن ذلك راجع إلى العلاقة بين سلطنة غرناطة ومملكة أراغون، فكانت الأخيرة قد أنيطت إليها مهمة استرداد المناطق الشرقية من الأندلس^(٢)، وخلال المدة أعلاه (القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) وقع سلاطين غرناطة العديد من اتفاقيات الهدنة مع مملكة أراغون^(٣) جعلت تلك الجبهة أقل سخونة من الجبهة الغربية لاسيما بعد أن اتخذت مملكة قشتالة مدينة إشبيلية عاصمة لها بعد طرد

(١) ريحانة الكتاب، ٢٩٤٢.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٤٣، ٥/١٤٤.

(٣) ينظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/١٢٠، ١٣٠، ١٤٨، ١٥١.

المسلمين منها سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م^(١) ، بعدها ركزت هجماتها على المناطق الغربية والجنوبية من سلطنة غرناطة لدفع المسلمين عن عاصمتهم.

إلا أنه منذ بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي أخذت العلاقات بين كل من مملكة أراغون وقشتالة بالتحسن ، إذ بعد وفاة ملك أراغون مرتين الأول (٧٩٨-٨١٣ هـ/١٣٩٥-١٤١٠م) ساد نزاع حول عرش المملكة ثم وقع الاختيار على فرناندو القشتالي ولد خوان الأول ملك قشتالة لأن أمه ابنة بيدرو الأول ملك أراغون وأخت الملك مرتين فجلس على عرش أراغون سنة ٨١٥ هـ/١٤١٢م^(٢) ، وهكذا انتقل عرش أراغون إلى العائلة الحاكمة في قشتالة مما سيكون له أسوأ الأثر على مستقبل سلطنة غرناطة^(٣) ، ففي العام نفسه قام فرناندو القشتالي ملك أراغون بالإغارة على مدينة أنتقيرة^(٤) الأندلسية وتمكن من دخولها عنوة وعجز سلطان غرناطة آنذاك عن مقاومته فسعى في عقد الهدنة معه حقناً لدماء المسلمين ، وقد عُرف فرناندو عندها بصاحب أنتقيرة^(٥) ، ومنها

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٨٧.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/١٧٨ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٨.

(٣) الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٨.

(٤) وهو حصن بالأندلس بين غرناطة ومالقة، ينظر : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٤٦.

(٥) ينظر التفاصيل عن موقعة أنتقيرة : المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢٨٠/٦ - ٢٨٢ إلا أنه يضعها سنة ٨١٣ هـ/١٤١٠ م ؛ عنان، دولة الإسلام في

انطوت صفحة الهدوء النسبي الذي كان سائداً بين مملكة أراغون
وغرناطة وبدأت صفحة التعاون المشترك بين مملكتي قشتالة وأراغون
ضد المسلمين في غرناطة.

ففي عهد سلطان غرناطة محمد الثامن الأيسر^(١) في سنة ٨٣٤ هـ
/١٤٣٠ م عقد ملكي قشتالة وأراغون معاهدة أطلق بموجبها ملك
أراغون يد ملك قشتالة في أن يغزو غرناطة عوضاً عن ما خسره من
أموال بسبب النزاعات السابقة التي دارت بينهما ، فقام الأخير
بضرب الحصار على مدينة غرناطة وكادت المدينة أن تسقط لولا
صمود أهلها ومساعدة المغاربة لهم حيث تمكنوا من صد المهاجمين
وهزيمتهم وقتل وأسر أعداداً كبيرة منهم بلغ نحو ستين ألفاً ، وقد
علق المقرئزي على ذلك بقوله: إن ((ملك قشتالة الفنشي فجمع
عساكره من الفرنج وركب البحر إلى قرطبة يريد أخذ أغرناطة من
المسلمين فاشتدّ ألباء عليهم لقلّة المال بأغرناطة وفناء عسكرها في
الفتنة... ونزل الفرنج عليهم فلقوهم في يوم الجمعة عاشر رمضان
من هذه السنة وقتلوهم يومهم ومن الغد قتل من المسلمين نحو
الخمسة عشر ألف وأجأهم العدو إلى دخول المدينة وعسكر

= الأندلس، ١٥٣/٥ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٨ .
(١) هو محمد الثامن بن يوسف الثالث أبو عبد الله الأيسر حكم غرناطة
للمدة من ٨٢٠ - ٨٣١ هـ / ١٤١٧ - ١٤٢٧ م، ثم خلع وأعيد مرتين وكان آخرها
سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م، ينظر: السخاوي، الضوء اللامع، ٦٨/١٠ ؛ الحجوي،
التاريخ الأندلسي، ص ٥٦٥ .

يَزَائِهَا عَلَى بَرِيدِ مَنَهَا وَهُمْ نَحْوَ خَمْسِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ وَقَدْ اشْتَدَّ
 الطَّمَعُ فِي أَخْذِهَا فَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَةَ الْوَاحِدِ فِي بَكَاءٍ وَتَضَرُّعٍ إِلَى
 اللَّهِ فَفَتَحَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَلْهَمَهُمْ رَشْدَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا
 زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنَ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى بْنَ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْحَقِّ -
 شَيْخَ الْغُرَاةِ - خَرَجَ مِنْ مَدِينَةِ أَعْرَنْطَةِ فِي جَمْعِ أَلْفَيْنِ مِنَ الْأَجْنَادِ
 وَعَشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُطَوِّعَةِ وَسَارَ نِصْفَ اللَّيْلِ عَلَى جَبَلِ الْفَخَّارِ ،
 حَتَّى أَبْعَدَ عَنْ مَعْسَكِ الْفَرَنْجِ إِلَى جِهَةِ بِلَادِهِمْ وَرَفَعَ إِمَارَةَ فِي
 الْأَجْبَالِ يَعْلَمُ بِهَا السُّلْطَانُ بِأَعْرَنْطَةِ فَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الْعَلَامَاتِ مِنْ
 الْغَدِّ خَرَجَ يَوْمَ الْوَاحِدِ بِجَمِيعِ مَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ إِلَى الْفَرَنْجِ فَنَارُوا
 لِحَرْبِهِمْ فَوَلَّى السُّلْطَانُ بِيَمْنٍ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ قَدْ انْهَزَمُوا
 وَالْفَرَنْجُ تَتَبَعَهُمْ حَتَّى قَارَبُوا الْمَدِينَةَ ثُمَّ رَفَعُوا الْأَعْلَامَ الْإِسْلَامِيَّةَ فَلَمَّا
 رَأَاهَا الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَّا نَزَلَ بِيَمْنٍ مَعَهُ إِلَى مَعْسَكِ الْفَرَنْجِ وَالْقِي فِيهِ
 النَّارُ وَوَضَعَ السِّيفَ فِيمَنْ هُنَاكَ فَقَتَلَ وَأَسْرَ وَسَبَى فَلَمْ يَدْعِ الْفَرَنْجُ
 إِلَّا وَالصَّرِيخَ قَدْ جَاءَهُمْ وَالنَّارُ تَرْتَفِعُ مِنْ مَعْسَكِهِمْ فَتَرَكَوْا أَهْلَ
 أَعْرَنْطَةَ وَرَجَعُوا إِلَى مَعْسَكِهِمْ فَرَكِبَ السُّلْطَانُ بِيَمْنٍ مَعَهُ أَقْفِيَّتَهُمْ
 يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ فَبَلَّغَتْ عِدَّةٌ مِنْ قَتْلِ مِنَ الْفَرَنْجِ سِتَّةً وَثَلَاثُونَ أَلْفًا
 وَلَحِقَ بَاقِيَهُمْ بِبِلَادِهِمْ بَعْدَ مَا كَادُوا أَنْ يَمْلِكُوا أَعْرَنْطَةَ ، وَبَلَّغَتْ عِدَّةٌ
 مِنْ أَسْرِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْفَرَنْجِ نَحْوَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا وَيَقُولُ الْكَثِيرُ إِنَّهُ
 قَتَلَ وَمَاتَ وَأَسْرَ مِنَ الْفَرَنْجِ فِي هَذِهِ الْكَائِنَةِ زِيَادَةَ عَلَى سِتِّينَ أَلْفًا ،
 وَكَانَ سَبَبَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ أَنَّهُ وَقَعَ بَيْنَ مَلِكِ الْقَطْلَانِ صَاحِبِ
 بَرْجُلُونَةَ وَيَبْنَ مَلِكِ قَشْتَالَةَ صَاحِبِ أَشْبِيلِيَّةِ وَقَرْطَبَةَ فَجَمَعَ الْقَشْتِيلِي

وَسَارَ لِحَرْبِ الْقِطْلَانِيِّ حَتَّى تَلَاقَى الْجَمْعَانِ فَمَشَى الْأَكَابِرَ بَيْنَ الْمَلَكِيِّينَ فِي الصُّلْحِ فَاعْتَذَرَ الْقَشْتِيلِيُّ بِأَنَّهُ أَنْفَقَ فِي حَرَكَتِهِ مَا لَا كَثِيرًا فَأَثِيرَ عَلَيْهِ بِأَخْذِ مَا أَنْفَقَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَغْزَوْهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ ضَعَفُوا وَمَا زَالُوا حَتَّى تَقَرَّرَ الصُّلْحُ وَنَزَلَ عَلَى أَعْرَانَاةٍ وَكَانَ مَا تَقْدَمُ ذَكَرَهُ^(١).

وعلى الرغم من هزيمة الجيش القشتالي في الموقعة أعلاه إلا أن وصوله إلى أبواب غرناطة يعني أنهم استباحوا الأراضي الشمالية للمدينة ومنها مدينة بسطة ، كما أن بتجاوزهم مدينة بسطة ووادي آش ووصولهم إلى غرناطة أدركوا أن تلك المناطق ربما أصبحت هدفاً سهلاً يمكن ابتلاعه في أي وقت ، ولكن صمود غرناطة واستبسال المسلمين في الدفاع عنها جعل قشتالة تغير بعض خططها والعمل على ضرب حزام المدن والحصون المحيطة بها من أجل إضعافها ، ففي سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤ م أغار نصارى قشتالة على أراضي شرق غرناطة ثم عاودوا في العام التالي وأغاروا على وادي آش وبسطة واحتلوا بعض الحصون فهبَّ السلطان محمد الأيسر وتمكن من ردهم^(٢) ، وحاول الأيسر في أواخر حكمه أن يستنجد بحكام مصر وأرسل سفارة إلى القاهرة سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، وقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله: ((ورد كتاب الغالب بالله عبد الله بن محمد بن الأمير أبي الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبي عبد

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ٧/٢٢٨.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/١٦١.

الله بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر ممتلك أغرناطة من الأندلس يتضمّن ما فيه المسلمون بغرناطة من الشدة مع النصارى أهل قرطبة وأشبيلية ويسأل النجدة^(١)، وهنا أشار المقرئ إلى أن السفارة أرسلها السلطان الغالب بالله عبد الله بن محمد بن الأحمر إلا أن عنان يرجح أن السفارة أرسلها السلطان محمد الأيسر وفي آخر أيامه بعدها ثار عليه السلطان محمد بن نصر الغني بالله^(٢) ولم يكن خبر تنحية الأيسر قد وصل إلى القاهرة عند وصول الوفد وهو ما يرجح أن الأيسر هو مرسل السفارة، ويضيف عنان أيضاً أن هذه السفارة لم تسفر عن أي نتيجة إذ اعتذر سلطان مصر ببعده المسافة ووعدهم بالمال والمعونة^(٣).

وخلال منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي شهدت سلطنة غرناطة فتن داخلية ونزاعات على السلطة بين أبناء البيت الحاكم من بني الأحمر أدى إلى تدهور أحوالها العامة وشجعت أعداءها النصارى على تشديد الهجمات عليها للفوز بحصتها منها، ومن أغرب ما وُقع آنذاك أن السلطان يوسف الخامس بن

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤٦٩/٧.

(٢) حكم السلطان محمد العاشر الأحنف الغني بالله سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م ثم خلع، ثم أعيد مرة أخرى سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥ م وُخلع سنة ٨٦٣ هـ/١٤٥٨ م، ينظر: الحجري، التاريخ الأندلسي، ص ٥٦٥.

(٣) دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٢/٥.

إسماعيل بن الأحمر (٨٦٧-٨٦٨ هـ / ١٤٦٢-١٤٦٣م) وقع معاهدة صلح مع قشتالة جاء فيها: أن توضع الحرب أوزارها عن جميع البلاد إلا ثغر جيان بين الفريقين فإنه يبقى ميداناً للغارات^(١) ، وهذا يعني أن مدينة بسطة وحصونها مستثناة من هذه المعاهدة وتبقى مسرحاً لهجمات قشتالة.

(١) أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، ص ١٧٤.

الفصل الرابع

سقوط مدينتي بسطة

أولاً: الصراع السياسي في دولة بني الأحمر وأثره على مدينة بسطة
وشهدت المرحلة الأخيرة من حياة سلطنة غرناطة (٨٦٨هـ/٨٩٧هـ-١٤٦٣/١٤٩١م) استمرار الصراع الأسري بين حكام بني الأحمر حتى صفت إلى السلطان أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر الذي طال حكمه للمدة (٨٦٨-٨٨٧ هـ/١٤٦٣-١٤٨٢ م) ، وقد وصفه مؤلف مجهول وهو معاصر له بالقول: ((... ، وانقرضت أعلام الفتننة وخدمت نارها ودانت له جميع بلاد الأندلس ولم يبق له فيها معاند وهو مع ذلك يغزو بلاد الروم المرة بعد المرة حتى غزا غزوات كثيرة وأظهر الأحكام ونظر في مصالح الحصون ونمى الجيش فهابته النصاري وصالحته براً وبحراً وكثر الخير وانبسطن الأرزاق ورخصت الأسعار وانتشر الأمن في جميع بلاد الأندلس وشملتهم العافية في تلك المدة وضربت سكة جديدة طيبة))^(١) ، وأضاف: إلا أن السلطان بعد حادثة السيل الذي تعرضت له غرناطة سنة ٨٨٣ هـ/١٤٧٨ م^(٢) ((اشتغل باللذات

(١) نبذة العصر، ص ٣٦- ٣٧.

(٢) ينظر التفاصيل عن حادثة السيل: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٤٥٤١.

والإنهماك في الشّهوات واللّهو بالنساء المطربات وركن إلى الرّاحة والغفلات وضيع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان وثقل المغارم وكثر الضرائب في البلدان ومكس الأسواق ونهب الأموال وشح بالعتاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك^(١).

وفي المقابل شهدت العلاقات بين مملكتي قشتالة وأراغون تطورا مهماً كان له أسوأ الأثر على مستقبل غرناطة ، فقد مرّ بنا كيف وقع الاختيار على فرناندو القشتالي ولد خوان الأول ملك قشتالة ملكاً لأراغون لأن أمّه ابنة بيدرو الأول وأخت الملك مرتين فجلس على عرش أراغون سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م ، ففي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك هنري الرابع (٨٥٩-٨٧٩هـ/١٤٥٤-١٤٧٤م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون (٨٦٣-٨٨٤هـ/١٤٥٨-١٤٧٩م) ، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش توجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة ، كما ورث فرناندو الأراغوني أباه عند وفاته ، فكان ثمة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتان قشتالة وأراغون^(٢) ، ولقبا بالملكين الكاثوليكين^(٣).

إلا أن أخطر تطور حصل على الساحة السياسية في غرناطة هو الفرقة التي حدثت بين السلطان أبي الحسن وولديه أبي عبد الله

(١) نبذة العصر، ص ٤٥ .

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٢/٥ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في

الأندلس، ص ٤٩ .

(٣) الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩ .

محمد(الصغير) وأبي الحجاج يوسف ، ويرجع سبب ذلك إلى أن السلطان كان قد تزوج من ابنة عمّه عائشة الحرة^(١) فأولدها ولديه أعلاه ، ثم تزوج من فتاة نصرانية تدعى ثريا^(٢) وأولدها ابنه سعد ونصر فأوغرت صدره على ولديه من عائشة فاعتقلهما مع أمهما إلا أنهما تمكنوا من الفرار والتغلب على السلطة في غرناطة وترجع أبو عبد الله الصغير على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م وفرّ السلطان أبو الحسن إلى مدينة بسطة حيث استقبل هناك من قبل أهالي المدينة ، ثم تمكن من تجميع أنصاره مكوناً منهم قوة بلغت خمسمائة شخص زحف بها نحو مدينة غرناطة حيث ابنه أبو عبد الله الصغير ، وتمكن مع رجاله من تسلق أسوار مدينة غرناطة وخاض معركة عنيفة مع أنصار ابنه قتل فيها الكثير من أتباعه مما

(١) وهي عائشة بنت الأمير محمد الأيسر ابنة عمّ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصرى تزوجها سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م وتوفيت في حدود سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١ م، ينظر: الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٩٣- ١٩٦.

(٢) وهي جارية رومية كان اسمها إيزابيلا أخذت أسيرة في إحدى المعارك وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام وتسمت بثريا وكانت حسناء فتعلق بها السلطان وتزوجها وأولدها اثنين هما سعد ونصر، وبعد سقوط غرناطة لم تغادر الأندلس فقد تنصرت هي وولديها، ينظر: الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ٩٠- ٩١، وذكر إيرفنج أن اسمها فاطمة ولقبها الزوراء وهي مسيحية بالولادة ابنة القائد سانشو أكزيمينس دي سوثي، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٦.

اضطره إلى التراجع والهرب إلى مالقة^(١) حيث أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل^(٢).

وقد اغتتم النصارى ذلك الانقسام الذي تزامن مع انقضاء مدة الهدنة التي عقدها السلطان مع قشتالة بمهاجمة أراضي مملكة غرناطة فاستولوا على مدينة الحمة^(٣) (الحامة) ولوشة^(٤)، كما هاجموا مالقة إلا أن حاكمها أبو عبد الله الزغل تمكن من ردهم سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م^(٥)، عندها اعتزم أبو عبد الله الصغير أن يحذو حذو عمه في الجهاد فخرج نحو أحواز قرطبة وحقق بعض الانتصارات إلا أن النصارى تمكنوا من أسره في طريق عودته^(٦) ورجع جيشه دون أميره فاستدعى أهل غرناطة أباه أبا الحسن ولكنه كان قد أعياه الهرم فتنازل لأخيه أبي عبد الله الزغل حاكم مالقة، إلا أن ملكا قشتالة أفرجا بعد ذلك عن أبي عبد الله الصغير بعد أن أخذوا عليه الموائيق بتبعيته لهم مع جزية سنوية^(٧).

وعندما أطلق سراح أبو عبد الله الصغير كان عمه أبا عبد الله

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) المقري، نضح الطيب، ٥١٤/٤؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٢/٥.

(٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٦٥٤؛ إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩.

(٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٩ - ٦٠.

(٥) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٤.

(٦) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٥؛ المقري، نضح الطيب، ٥١٥/٤.

(٧) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٦؛ إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص

١٣٥؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤/٥ - ٢٠٥.

الزغل يُحکم سيطرته على غرناطة ويطمع بالسيطرة على جميع ما تبقى من الأندلس لنفسه ، فعمد الصغير إلى التوجه إلى شرق الأندلس ودخل حصن بلش Velez القريب من مدينة بسطة بمساعدة قوة من النصارى وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبيث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يُطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته^(١) ، وقد علّق مؤلف مجهول المعاصر للأحداث على ذلك بقوله: ((استولى العدو على حصن صالحة من حصون بلش ثم إن العدو دمره الله سرح الأمير أبا عبد الله مُحَمَّد بن عليّ إلى بعض حصون الشرقية ووعده بالصلح إن أطاعه الشعب فقامت بدعوته تلك الحصون طمعاً بالصلح وبالبقاء في الحصون))^(٢).

وهكذا أصبح لغرناطة حاكمين من بني الأحمر استقر أبو عبد الله الصغير في المناطق الشرقية (بسطة وحصونها) فيما يحكم عمه أبو الله الزغل غرناطة ومالقة والمرية^(٣) ، وفيما كانت نار الفتنة قائمة بين الخصمين كانت جيوش قشتالة قد استولت على العديد من المدن والحصون وأخذت تُضيّق الخناق على غرناطة^(٤).

(١) المقري، نوح الطيب، ٥١٦/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٨/٥.

(٢) نبذة العصر، ص ٧٦.

(٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٨؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٩/٥.

(٤) ينظر التفاصيل : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ - ٨٤ ؛ عنان، دولة

الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥ - ٢١٤.

وأشار مؤلف مجهول (وهو معاصر للأحداث) أن أبا عبد الله الصغير من مقره في حصن بلش القريب من بسطة أخذ يرأسل بقية المناطق ويعدهم بالصلح مع النصارى ((فلم يقبل منه أحد ولم يقيم بدعوته فرد))^(١) ، وبسبب موقفه الضعيف هذا بين الناس استعان بالنصارى إذ أمده الملك القشتالي فرناندو Fernando بعدد من القوات النصارى وأخذوا بمهاجمة بعض المدن منها المرية وبسطة وهو ما زاد من حنق أهالي تلك المناطق له ، وقد علق إيرفنج على موقف أبي عبد الله الصغير بقوله: ((لقد رضي بيدول^(٢) التعس بشرور ثلاث: أولها تدمير شعبه ، وثانيها العداة لعمه ، وثالثها تحالفه مع فرناندو الذي جلب عليه بعض النفع والكثير من الضرر ، والكل ينظر إليه كعدو لدينه وبلاده ، فأغلقت كل المدن أبوابها بوجهه ، وصار الناس يلعنونه ، حتى القلة من الفرسان العرب الذين قاتلوا تحت علمه بدأوا يتركونه ، وهو على كل حال لا يكافئهم أو يدعمهم لأنه لا يحتاجهم حاجته لفرسان النصارى ، فصار من الصعب عليه أن يجد مكاناً في الأرض يغرس عليه علمه ليحارب منطلقاً منه))^(٣).

وأمام هذا الموقف الحرج له وأن أهل تلك المناطق لم يقبلوا منه

(١) نبذة العصر ، ص ٨٤.

(٢) وهو اسم أبو عبد الله الصغير عند النصارى آنذاك، ينظر: إيرفنج، أخبار

سقوط غرناطة، ص ٩٥.

(٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٣٤.

غادر المناطق الشرقية ودخل خلصة إلى حي البيازين من أحياء
 غرناطة وانضم إليه بعض أهلها فاشتعلت نار الفتنة بين أهل البيازين
 وأهل غرناطة^(١) ، وعزم أبو عبد الله الزغل أن يدخل حي البيازين
 بالقوة ويقضي على ابن أخيه أبي عبد الله الصغير ، وفي محرم من
 سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م حشد جيشه بعد أن ندب إليه من أهل غرناطة
 وأهل بسطة ووادي آش وما حولها من الحصون فجاءت إليه
 الحشود وأطبق الزغل الحصار على حي البيازين ، وقد علق مؤلف
 مجهول على ذلك بقوله: ((فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَالْعِشْرُونَ مِنْ
 مُحْرَمٍ عَامِ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ عَزَمَ أَمِيرُ غرناطة أَنْ يَدْخُلَ رِضَ الْبِيَازِينَ
 عَنَوَةً بِالسَّيْفِ ، فَندب أهل غرناطة وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَحْوَاظِهَا ، وَقَالَ لَهُمْ :
 إِنْ هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ قَدْ حَلَّتْ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ لِنَصْرَتِهِمْ بِالنَّصَارَى فَمَا
 لَهُمْ إِلَّا السَّيْفُ ، وَندب أهل بسطة وَأهل وادي آش وَمِنْ حَوْلِهَا
 وَأَمْرَهُمْ بِالْهَبُوطِ عَلَى طَرِيقِ الْفَرِغِ وَالْدُخُولِ عَلَى بَابِ فِجِ اللَّبْوَةِ فِي
 ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفَتَحَ أَهْلَ غرناطة بَابَ الْحَدِيدِ وَبَابَ أَنْيْدَرِ وَبَابَ قَشْتَرِ
 وَنَقْبَةَ بَابِ الْبِنُودِ وَبَابَ الْبِنُودِ وَنَقْبَةَ رِضِ الْبَيْضَاءِ وَبَابَ الدَّفَافِ
 فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ وَطَلَعَتْ عَلَى الْوَادِي فَدَخَلَتْ بَابَ الشَّمِيسِ
 وَدَخَلَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ عَلَى جِهَتِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَطَفَ
 اللَّهُ تَعَالَى بِأَهْلِ الْبِيَازِينَ فَخَرَجَ لِكُلِّ جِهَةٍ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ طَائِفَةٌ
 مِنْهُمْ فَدَفَعُوهُمْ وَقَاتَلُوهُمْ وَرَدُّوهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْهَزِمِينَ فَدَخَلُوا

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

بلدهم وسدوا أبوابهم وبنوا نقبهم))^(١).

وأشار إيرفنغ^(٢) أن أبا عبد الله الصغير عندما أدرك أنه لا يقدر على مواجهة قوات عمه أبي عبد الله الزغل سارع إلى الطلب من الملك القشتالي فرناندو بالمساعدة فأمدّه الأخير فوراً بقوة بقيادة فرنان الفيريز دي سوتومري مما قوى موقفه^(٣).

وفي هذا الأثناء استغل النصارى الاقتتال الداخلي ، وفي محاولة لتخفيف الضغط أيضاً على حليفهم أبي عبد الله الصغير ، زحفوا نحو بلش مالقة في ربيع الثاني من سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م ، وأدرك أبو عبد الله الزغل أهمية بلش مالقة بالنسبة لمالقة نفسها فقسم قواته بعضها لمواجهة أبي عبد الله الصغير في حي البيازين ، وزحف هو لمواجهة النصارى وإنقاذ مالقة بعد أن جاءته تعزيزات من مدينة بسطة ووادي آش والمرية^(٤) ، إلا أنه لم يستطع إنقاذها فارتد نحو غرناطة ، وخلال غيابه تمكن أبو عبد الله الصغير من دخول غرناطة وتنصيب نفسه مكان عمه مما اضطر الزغل إلى التوجه إلى وادي آش والتحصن بها مع قواته^(٥) ، وبذلك انقلب الوضع فانقسمت

(١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٦ - ٨٨.

(٢) استقى إيرفنغ معلوماته من مخطوطة المؤلف نصراني معاصر لأحداث

يدعى أنطونيو آغايبدا، ينظر: أخبار سقوط غرناطة، ص ٤٩.

(٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٣٦.

(٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٤٤.

(٥) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

غرناطة بين حاكمين أحدهما أبو عبد الله الصغير في مدينة غرناطة وما يجاورها ، ووادي أش وأعمالها بيد أبي عبد الله الزغل^(١) ، أما مدينة بسطة وأعمالها فلعلها دانت بالطاعة لأبي عبد الله الزغل لقربه منها أولاً ، وكونهم ساعدوه ضد أبي عبد الله الصغير في نزاعه معه في حي البيازين ، وبذلك تحقق ما كان يتغيه ملكا قشتالة من تمزيق البقية الباقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها^(٢).

ثانياً: الهجوم الأول على بسطة وسقوط حصن طشكر

سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م

كان أولى نتائج ذلك الانقسام هو هجوم الجيش القشتالي على مالقة والاستيلاء عليها سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م^(٣) وذلك بهدف قطع الإمدادات بالكامل عن مسلمي غرناطة من المغرب والتفرغ للاستيلاء على بقية المدن والحصون^(٤).

وفي الوقت الذي كان أبو عبد الله الصغير في غرناطة وقد اعترف بتبعية ملك قشتالة كان عمه أبو عبد الله الزغل يسيطر على

(١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٨ - ٩٠؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥ - ٢١٤.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤/٥.

(٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ٩٢ - ٩٤؛ المقرئ، نوح الطيب، ٥٢٠/٤ - إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٨ - ٢٧٠.

(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥.

مساحات واسعة تشمل مدينة بسطة ووادي آش والمرية وهو يرفض بشدة هذه التبعية ، وقد أشار إيرنيغ إلى ذلك بقوله: ((ورغم أن الزغل لم يكن في هذه الفترة جالساً في قصر الحمراء ، إلا أنه كان يحكم منطقة أوسع من منطقة حكم ابن أخيه ، إذ تمتد حدوده من حدود جين(جيان)على امتداد موريسيا(مرسية) إلى البحر المتوسط ، لتصل إلى مركز المملكة ، وعلى الجبهة الشمالية الشرقية لديه مدينتا بازا(بسطة) وغواديكس(وادي آش) المتوضعتان في قلب المنطقة الخصبة... هذا هو القسم الغني الوعر الذي ظل موالياً للمحارب الكبير مولاي الزغل ، خاصة وأن المعقل الطبيعية لهذا القسم قد حتمته من الغزو والتدمير لهذه الحرب الحالية ، ولذلك هيا الزغل كل المواقع القتالية في هذه المنطقة لحرب طويلة وشرسة))^(١).

وقد وصف المؤرخ النصراني المعاصر أغايبدا أبا عبد الله الزغل بقوله: ((أنه بينما كان الملك فرنانود يتواضع أما الصليب ، ويكرس كل وقته للصلاة كي يدمر الرب عدوه ، كان هذا الوثني الشرس الزغل يعتمد على قوة وبأس ساعده المادي وسيفه الحديدي ، مطلقاً غضبه الشيطاني لتتبع النصراني))^(٢) ، وعليه فقد قام أبو عبد الله الزغل بعدة هجمات ناجحة على المناطق الحدودية مع قشتالة لدفعهم عن مناطق حكمه في بسطة ووادي آش ، ومن أهم تلك

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٢.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٨ نقلاً عن مخطوطة لأغايبدا.

الهجمات هو هجومه على حصن كولار^(١) وتمكن من اقتحام المناطق المحيطة به والوصول إلى القلعة المحصنة التي التجأ إليها قائد الحصن حيث ضرب عليها الحصار وتكمن المدافعون عنها من إيقاف تقدم قوات الزغل في معركة دامت خمسة أيام وكاد النصارى الاستسلام لولا وصول إمدادات لهم مكنتهم من الانسحاب فدخل أبو عبد الله الزغل بقواته إلى المدينة وقد وجدها خالية فأحرقها ثم انسحب إلى معقله في وادي آش ، وقد علق إيرفنج على ذلك بقوله: ((فلغم العرب السور الخارجي وأحد أبراج الحصن ، واستطاعوا الوصول إلى البلاد الخارجي للقصر ، لكن السيد اعتصم في البرج ليصب على المهاجمين المعادن المنصهرة والحجارة والسهم وكل ما لديه من قذائف ، مما دفع العرب إلى التراجع إلى خارج البلاط ، ليعودوا إلى الهجوم بقوات إضافية ، في معركة ظلت بين أخذ ورد مدة خمسة أيام ، وكاد النصارى أن يستسلموا لولا أن قوى سيدهم من معنوياتهم ، وحذرهم من أنهم سيلقون حتفهم صبراً لو استسلموا على يد الزغل إلى أن وصلتهم نجدة قوية بقيادة بترو كاريرو لتنقذهم من هذا المصير التعس ، حيث توقف الزغل عن هجومه ، ولكنه أحرق المدينة من خيبة أمله ، وعاد إلى معقله القوي في غواديكس))^(٢).

(١) حصن كولار، يبدو من خلال وصف إيرفنج له أنه يقع إلى الشمال من وادي آش.

(٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٨- ٣٠٩.

وهكذا تمكن أبو عبد الله الزغل أن يزيح خطر النصارى مؤقتاً عن حدوده معتمداً على قوة جنده من مدينتي وادي آش وبسطة ، وقد رأى فيه أهالي المدينتين الأمل الوحيد الذي ينقذهم ويطيل لبعض الوقت إقامتهم في وطنهم ، وغدا الزغل عندهم رجل الساعة بعد أن خذلهم أبو عبد الله الصغير بتواطئه مع النصارى ، وقد وصف المؤرخ النصراني حالة الفرع التي أوقعها أبو عبد الله الزغل في نفوس سكان حدود مملكة قشتالة بقوله: ((لقد كان هذا طوفاناً من الأحداث القوية والعظيمة في هذه المملكة القشتالية الأراغونية الممتدة ، كما لو أن أبواب السماء قد فتحت ثانية لطوفان ثانٍ يجتاح الأرض ، يهدر ويعصف ويمزق كل الجبال ، ويزحف على الوديان الوديعة ، والأنهار الخصبة ، ليدمر البيوت حولها ، ويجرق طواحين الغذاء بعنف اقتلاعه ، فالرعاة يرون قطعانهم تؤخذ منهم ومن مراعيها ، لا خيار لهم سوى الفرار بأرواحهم إلى الأبراج والمعازل العالية ، فقد صار هؤلاء الخاضعون للنصرانية كالبحر المزمجر الذي ملأ حتى سهوب إشبيلية الشقراء بالذعر))^(١).

وقد حاول المؤرخ النصراني تعليل سبب هزيمتهم على يد الزغل هو غضب الطبيعة على الدماء التي أراقها الزغل بقوله: ((ظهرت الأعاصير الطبيعية في السماء فوق هذه البلاد ، مصحوبة بالزلازل التي كانت تهز المدن ، والأبراج من أسسها ، إلى حد أن بعض

(١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٩ نقلاً عن مخطوطة لأغابيدا.

السفن التي كانت راسية في الموانئ تحطمت أو ابتلعها الموج أو أُلقيت إلى الشاطئ محطمة مهشمة أو متطايرة ، مما أشاع رعباً إضافياً عظيماً ، ولم تهدأ تلك العواصف قبل أن تترك كل أصناف الخراب في البلاد ، برأً وبحراً ،... ، إن بعض ذوي القلوب التي لم يرسخ فيها الإيمان قد ظنوا أن هذا من أحداث الطبيعة ، وربطوها بما حدث أو يمكن أن يحدث في أماكن أخرى ، على أساس أنها جزء من الطقس ، ولكنها في الواقع نتيجة الدماء البريئة التي غمس فيها الزغل يديه مع جماعته الغزاة من المسلمين))^(١).

ويبدو أن هناك نوع من التهويل الإعلامي حاول مؤرخ البلاط القشتالي أنطونيو أغاييدا إشاعته لحشد المزيد من الدعم للملكه عن طريق تصوير حاكم بسطة ووادي أش والمريّة أبو عبد الله الزغل بالرجل القوي الذي يمتلك من أدوات البطش ما يمكنه استعادة أمجاد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية لو تُرك في معقله القوي المحصن ، ولكن الواقع لا يؤيد ذلك ، فعلى الرغم من أن أبا عبد الله الزغل يتميز بقوة العزم والشجاعة إلا أن الظروف المحيطة به كانت صعبة ، فهناك ابن أخيه في غرناطة يتربص به مدعوماً بفرقة من الجيش النصراني لاستخلاص مدينتي وادي أش وبسطة منه وهو لا يأمن الانقضاض عليه في أية لحظة ، كما أن أهالي المناطق أصيبوا بالذعر والهلع لما حلّ بدولتهم من الضعف والانقسام والاقتيال فيما بين أبناء

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

الأسرة الحاكمة ، وبسبب ذلك- كما سنرى- فإن القوات القشتالية اجتاحت عدد من الحصون الشمالية الشرقية لمدينة بسطة بدون مقاومة. ومما يرجح ما ذهبنا إليه أن الملكان الكاثوليكيان دعوا إلى حملة صليبية كبرى للقضاء على مملكة غرناطة وطرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكانت هذه الدعوة قد وجهت منذ عام ٨٩١هـ / ١٤٨٦م حيث تجمعت في قرطبة قوات من فرنسا وانكلترا وألمانيا وبقية مناطق أوروبا وجرى لتلك القوات استعراض كبير حضره إضافة إلى الملكين فرناندو وإزابيلا قادة من تلك المناطق ، وقد وصف المؤرخ النصراني المعاصر ذلك التجمع من الجيوش بقوله: ((إنه كان مشهداً رائعاً للقضاء على هؤلاء الكفرة على يد من خرج من قرطبة من أكثر فرسان البلاد ورعاً وتصميماً وأباءً ، وهؤلاء الفرسان يبدون من بعيد كما لو أنهم يسبحون على بحر من أعلام الصليب باتجاه الهلال ،... ، من المجد والنصر حمل علم الإيمان ليلعب في كل مكان ، مما يعكس بأن هذا الجيش ليس جيشاً أرضياً ، يهدف إلى تحقيق نفع مادي من طموح أو ثأر بل جيشاً مسيحياً حقيقياً يهدف إلى انتزاع بذرة الشر المحمدي من الأرض بجملة صليبية ، لكي تعم سيطرة الكنيسة وحدها على كل العالم))^(١) ، بهذه الروح الصليبية تمكن ملكا قشتالة من حشد التأييد وجمع المال اللازم لاجتياح مدن بسطة ووادي آش والمرية وغيرها من الأراضي التي كانت تحت زعامة أبي عبد الله الزغل.

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٠٥ عن مخطوطة لأغابيدا.

وهنا جاء القرار الملكي القشتالي بالهجوم على مدينة بسطة ، لأنها كانت من الأعمال التابعة لأبي عبد الله الزغل للقضاء على سلطانه لما كان يخشاه من عزيمة وشجاعته وشدة بأسه^(١) ، وابتدأ أولاً بواحد من أهم حصونها وهو حصن أشكر(طشكر) الذي وُصف بأنه((فاق جميع حصون الأندلس منعة وعلواً ورفعة وطيب تربة وهواء ، وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا الحصن إلا موضعان وبين الموضع والموضع اثنا عشر ميلاً على طرق مثل شراك النعل ومدارج النمل))^(٢) ، ووصفه ياقوت بالقول إنه((حصن حصين في كورة جيّان من أعمال الأندلس لا يرتقى إلا بالسلايم))^(٣) ، ولعل مناعته كانت واحداً من أسباب تأجيل اقتحامه من قبل النصارى حتى إرهاب أهله وإضعاف معنوياتهم وهو ما حدث فعلاً ، جدير بالذكر هنا أن مدينة بسطة وحصونها كانت داخلية في صلح مع ملك قشتالة أبرمه معه السلطان أبو عبد الله الصغير بعد إطلاقه من الأسر وأن أمده لم ينته بعد ، وكان عليه أن ينتظر حتى ينتهي أمد الصلح ، ولكنه لم يفعل ذلك ونقض عهده^(٤) .

فبعد أن أطبقت قوات قشتالة على غرناطة من كل جانب أيقن

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥ .

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢ .

(٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٠ .

(٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس،

أهالي الحصن أنهم في جيب بعيد لا مخرج منه إلا بالاستسلام وهو ما حدث ، ففي ربيع من سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م زحف فرناندو الثاني Ferdinand II (٨٨٤-٩٢٢هـ / ١٤٧٩-١٥١٦م) على أطراف سلطنة غرناطة الشمالية الشرقية ناقضاً للصلح الذي كان بينهما فاستولى على أهم حصونها وهو حصن أشكر (طشكر) ويسميه إيرفنج (قصار)^(١) ، وقد أشار مؤلف مجهول إلى ذلك بقوله: ((وَفِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِ مِئَةَ خَرَجَ الْعَدُوُّ نَحْوَ حِصُونِ الشَّرْقِيَّةِ وَكَانَتْ فِي صَلْحِهِ فَاسْتَوْلَى عَلَى تِلْكَ الْحُصُونِ كُلِّهَا غَدْرًا وَمَكْرًا مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا حِصَارٍ وَلَا تَعَبٍ وَصَارَتْ جَمِيعُ حِصُونِ الشَّرْقِيَّةِ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ إِيَالَتِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَادِهِ مِنْ قِشْتَالَةِ))^(٢) ، كما أشار المقرئ إلى مهاجمة ملك قشتالة لحصون المنطقة الشرقية ونكثه العهد الأول ثم عقد صلحاً آخر معهم بقوله: ((وَفِي عَامِ ثَلَاثَةِ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِ مِئَةَ خَرَجَ الْعَدُوُّ الْكَافِرُ إِلَى الشَّرْقِيَّةِ وَبَلَّشَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّلْحِ ، فَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا ، وَاحْتَجَّوْا بِالصَّلْحِ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَأَخَذَ تِلْكَ الْبِلَادَ كُلَّهَا صَلْحًا ، ثُمَّ رَجَعَ لِبِلَادِهِ))^(٣).

فيما أشار إيرفنج إلى أن الملك القشتالي أدرك أنه لا يمكنه التقدم إلى مدينة بسطة إلا بعد أن يؤمن عدداً من القلاع والحصون المحيطة بها وإلا نقضت على جيشه من الخلف ولاسيما (قصار) التي تقدم

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

(٢) نبذة العصر، ص ٩٥.

(٣) نصح الطيب، ٥٢١/٤.

نحوها))فقاوم بعضها مقاومة باسلة وخاصة مدينة كقصار ، التي هدم
النصارى سورها بكل ما يملكون من أدوات ومكائن تهديم
الحصون ، لكن السيد الشجاع حبوس بن عبد العال^(١) كان يقاوم
كل قوة بمثلها ، وكل ماكنة أو مدفع بمثله ، وقد شحن أبراجه
بأشجع رجاله الذين كانوا يمتطرون عدوهم بالقذائف من كل نوع ،
كما ربط مراجله التي تصب الزيوت والمعادن الحارقة على
المهاجمين ببعضها بسلاسل حديدية وكان يقلبها دفعة واحدة على
الأبراج الخشبية التي تحركها الدبابات الخشبية نحو أبراجه ، ليحرقها
بمن فيها دفعة واحدة ، ولذلك صد الهجوم لعدة أيام ، ولكن كثرة
العدو كانت أغلب من شجاعة هذا السيد ، الذي استطاع أن ينتزع
شروطاً مشرفة لاستسلامه^(٢).

وأشار عنان إلى أنه يوجد في بلدية أشكر وثيقة عهد وقعها
الملكان الكاثوليكيان لأهل حصن أشكر(طشكر) جاء فيها: ((يتعهد
الملكان ، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا
يؤخذ شيء من أمتعتهم أو يصيبهم أي مكروه ، وألا يدفعوا من
الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه للملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على
محاربة إخوانهم مسلمي غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء
زعمائهم وفقهائهم ، وعوائدهم وشريعتهم ، وأنه يحق لهم الإقامة في
أي جزء من أراضي مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور إلى المغرب

(١) واضح من النص أنه والي حصن طشكر من قبل أبي عبد الله الزغل.

(٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

أحراراً ودون أي قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو إناثاً ، بالرفق والكرامة وألا يغضبهم أحد في دورهم ، أو يسيء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم ، وألاً يعاشر نصراني مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه ، وأن يُدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل في بناء حصن المدينة^(١).

ويمكن أن نستشف من بنود هذه الوثيقة أن مناعة الحصن وصعوبة اقتحامه كانت من أسباب إبرامها ، إذ أدرك ملكا قشتالة أن دخولهم الحصن بالقوة سيكلفهم الكثير من الخسائر ، لذا أوهموا الأهالي بهذه الشروط المغرية التي تعهدوا بها من أجل الدخول إلى الحصن المنيع دون أي نية صادقة في الوفاء بها ، ومن جانب آخر فإن قائد حامية حصن طشكر حبوس بن عبد العال أدرك أنه يصعب عليه المقاومة كثيراً وسط غياب أي دعم له من أبي عبد الله الزغل الذي كما يبدو لم يستطع أن ينجده خوفاً هجوم محتمل قد يقوم به ابن أخيه أبي عبد الله الصغير ، لذا ترك الحصن المنيع يواجه مصيره بنفسه.

(١) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥ - ٢٢٤.

ثالثاً: الهجوم الثاني على مدينة بسطة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م

كانت مدينة بسطة حسب خطة الملك القشتالي تعد ((مفتاحاً لكل ما بقي بحوزة العرب من الأندلس ، فإذا أخذ هذا المعقل الهام تبعه غواديكس والمرية حتماً ، وبذلك ينتهي نفوذ الزغل إلى الأبد))^(١) ، وكان الجيش القشتالي قد تأخر في الهجوم على مدينة بسطة بسبب المقاومة التي لاقاها في حصن طشكر ، فكان عليه الانتظار حتى نهاية الشتاء من سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م ، وعندما حلّ الربيع اجتمعت القوات الصليبية على حدود جيان المواجهة لمدينة بسطة وكانت الملكة إيزابيلا قد اصطحبت الجيش إلى هناك ، وقد وصف إيرفنج الجيش الصليبي المجتمع في جيان والمتأهب للهجوم على بسطة بقوله: ((وبزوال الشتاء العاصف وتقدم الربيع عام ١٤٨٩ م ، ورغم تساقط الأمطار الكثيفة التي عطلت الطرقات ، ورغم أن الينابيع ممتلئة والسواقي فياضة ، والأنهار فائضة وخطيرة ، رغم كل هذا اجتمعت القوات الصليبية على حدود جين أي جيان - لأجل حروب الصائفة ، ولكن هذه القوات كانت بطيئة الوصول بقوافلها التي كان يصعب عليها اجتياز أي جدول مهما ضحل ، فلم يكتمل التجمع إلا في أيار/مايو ، حتى يبدأ الغزو ، وأخيراً تجمع جيش من ثلاثة عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل على الحدود ، وبقيت الملكة في مدينة جين مع أولادها ، بصحبة كاردينال أسبانيا

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

الأكبر ، ومن يساعدها من مستشارين في هذه الحرب المقدسة))^(١).
وحسب إيرفنج فإن تأخر الجيش الصليبي أمام طشكر قد مكن أبو
عبد الله الزغل من تزويد مدينة بسطة بكل ما تحتاج إليه لمواجهة
الحصار ، كما أرسل نداءات استغاثة لكل المناطق للجهاد في سبيل
الله ، فلباه المسلمون من كل أنحاء الأندلس متطوعين للدفاع عن
بسطة ، ولم يمنع تواجد القوات النصرانية في غرناطة مع أبي عبد الله
الصغير من تسلسل الكثير من الفرسان من أهالي غرناطة والتوجه إلى
بسطة للمشاركة في الدفاع عنها ، كما أرسل أبو عبد الله الزغل إلى
واليه على المرية وصهره يحيى النيار بن سليم والذي يسميه إيرفنج
بسيدي يحيى بالتوجه إلى بسطة بأسرع وقت ممكن ، فأسرع القائد يحيى
ومعه عشرة آلاف مقاتل ، وعندما وصلوا إلى مدينة بسطة خرج
الأهالي لاستقبالهم ، وانضمت إليه القوات المنسحبة من حصن
طشكر بقيادة حبوس بن عبد العال ، فضلاً عن قوات المدينة نفسها ،
وبذلك بلغ عدد القوات الإسلامية المدافعة عن مدينة بسطة عشرين
ألف مقاتل ، وكان سيدي يحيى هو القائد العام لهذه القوات^(٢) ، أما
أبو عبد الله الزغل فإنه لم يستطع مغادرة مقره في مدينة وادي آش
خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبي عبدالله الصغير في غيبته^(٣).
لم تكن الطبيعة المحيطة بمدينة بسطة سهلة المنال ، فهناك شبكة

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥.

كبيرة من الأنهار والجداول التي تغطيها غابات كثيفة من أشجار الفاكهة والزروع تبدو للناظر كالغابة فضلاً عن سور المدينة والأبراج المحيطة بها والتي تؤمن الحماية لها ، وقد وصف إيرفنج تلك التحصينات المحيطة بمدينة بسطة بقوله: ((أما مدينة بازا فكانت في وادٍ عظيمٍ خصب ، بطول حوالي أربعة وعشرين ميلاً وتسعة أميال عرضاً ، ويسمى حوض بازا الذي تحيط به الجبال المسماة سيرا إكسا بالالكول التي منها تندفع مجموعة من الجداول وتجتمع بنهرين يسقيان هذه البلاد الخصيبة ، ورغم أن المدينة مبنية في السهول إلا أن جزءاً منها يستند ويحتمي بالجبل وعليها قلاع قوية ، ويحيط بالمدينة سور عالٍ وشديد ، فيه أبراج هائلة ، وللمدينة ضاحية من جهة السهل محمية بجدار طيني سيء - دك - وأمام هذه الضاحية مصاطب مزروعة بالحدائق طولها حوالي ثلاثة أميال ، وبها زراعة كثيفة جعلها تبدو كغابة ، يمتلكها سكان المدينة بشبه تساو ، بحيث أن لكل منهم تقريباً حديقته الخاصة التي يزرع فيها حاجته من الفواكه والأزهار والخضار ، ويسقي هذه المصاطب جداول مائية صناعية تتحكم بها عبارات من الماء الذي يأتي من جانب الأبراج الدفاعية للمدينة ويمكن التحكم بها منها ، من خلال مجموعة سكور تشكل نوعاً من الحماية لهذا الجانب من المدينة الذي يمكن إغراقه إذا فتحت ، فيستحيل المرور بهذه المصاطب - الجروف - أو

يصعب إلى أقصى الحدود ، مما يؤمن الدفاع عن المدينة من هذا الجانب))^(١).

وعندما أخذ الجيش الصليبي يتقدم باتجاه مدينة بسطة عمل أهالي المدينة على حصاد زروعهم فضلاً عن قطعان المواشي والأغذية إلى داخل المدينة فأصبحت لديهم من التجهيزات والأغذية ما يمكنهم من الصمود خمسة عشر شهراً^(٢).

وفي رجب من سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م تقدمت قوات قشتالة بقيادة الملك فرناندو مع باقي القوات الصليبية إلى مدينة بسطة واستولت أولاً على العديد من الحصون القريبة منها ، ولإدراكه بقوة حامية المدينة وقوة تحصيناتها ترك قسماً من قواته تضرب الحصار عليها فيما سار هو نحو ميناء المنكب^(٣) Almunecr^(٤) في محاولة ذكية منه بقصد إطالة أمد الحصار على أهل بسطة وإرهاقهم أولاً ثم لتقسيم سلطنة غرناطة إلى قسمين ، لأن استيلاءه على ميناء المنكب يجعل مدينة المرية معزولة تماماً يمنع من خلالها أي مساعدات قد تصل إلى غرناطة عن طريق البحر لاسيما وأنه كان قد استولى على مالقة منذ سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م ، كما أصبحت غرناطة وما يليها من

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

(٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٤.

(٣) وهو ميناء يقع على البحر المتوسط بين مالقة والمرية ويبعد عن غرناطة أربعين ميلاً، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٨- ٥٤٩.

(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/٢٢٤.

أراضي المسلمين معزولة تماماً عن البحر.

وأخيراً نصب الملك القشتالي فرناندو خيمته أمام مدينة بسطة وأحاطت بقية القوات الصليبية بالمدينة من معظم جهاتها وأخذت عليها المنافذ ، ثم أرسل طلبه إلى سكان المدينة بالاستسلام واعدأ إياهم بأحسن الشروط إذا نفذوا طلبه وهددهم بأشد العواقب في حالة رفضه وحذرهم بأنه مع باقي قواته سيواصلون الحصار مهما طال الوقت^(١).

عندما قرأ قائد مدينة بسطة يحيى النيار الطلب شعر بالإهانة وأعلن أنه لن يستسلم حتى لو دُفن تحت الأنقاض ، إلا أنه تراجع عن قراره هذا بعد عقده مجلس حرب مع أعيان المدينة تشاوروا خلاله طلب الملك القشتالي ، فقرروا إرسال جواب أكثر ليونة شكروه فيه على شروطه ثم أوضحوا له أنهم موجودون للدفاع عن المدينة لا لتسليمها^(٢).

عندها قرر الملك القشتالي تشديد الحصار على مدينة بسطة وحاول دفع بعض قواته التقدم إلى ما وراء الحدائق المحيطة بالمدينة والوصول بالقرب من أسوارها كي يمكن بطاريات المدفعية أن تضرب الأسوار ، وما أن تقدمت قوات الخيالة النصرانية نحو الحدائق حتى خرجت إليهم قوة مشاة من أهالي بسطة بقيادة يحيى النيار (الذي تسميه الرواية النصرانية بسيدي يحيى) للتصدي لهم ، فقد أدرك المدافعون أهمية

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٤.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٥.

الحدائق كخط دفاعي ، وأخذ يجيى النيار يثير حماس قواته بأنهم يدافعون عن الأهل والنفس والوطن والدين ، فاشتبكوا مع القوة القشتالية ، وبسبب كثافة الأشجار والجداول اضطرت القوة القشتالية إلى الترجل لعدم إمكانية الخيل في المناورة في تلك البيئة ، ودارت رحى معركة طاحنة وصفها إيرفنج بقوله: ((... ، فصارت مذبحاً تحت ظل كل شجرة ووردة تختلف باختلاف موقعها ، وتتفق بشكل وحشيتها بشكل متميز ، لذلك لم يكن أحد يرى سوى ما حوله من منظر سفك دم ، ولا أحد بالتالي يعرف أي شيء عن تطور المعركة ككل ، وكل نداءات المقدمين ، وكل أبواق النفير ، ذهب هباء ولم تسمع عبر صوت الأسنة ، وأنين الجرحى ، وزمجرة الرجال ، التي صارت عامة شاملة ، فلم يلتف واحد حول علمه ، ورح كل واحد يقاتل حسب ما تملي عليه حماسته الشخصية ، فكان للنصارى تقدم في بعض المواقع ، والعكس للعرب ، ليقع المتقدم الذي يطارد خصمه في خضم جيش الخصم دون أن يلاحظه ، فيصير الهارب مهاجماً والمهاجم هارباً ، موجات متداخلة مع بعضها في هذا الصنف من القتال ، حتى أن البعض من شدة ارتباكهم يلجأ لعدوه ، دون أن يتمكن أحد من معرفة صديقه من عدوه خلال هذا الصراع المتبدل ، لكن العرب كانوا الأمهر في هذا الصنف من المواجهة بالقتال ، لمرونتهم وخفتهم ورشاقتهم وسرعتهم بالضغط على الخصوم كراً وفرأً ، فكَرَّ ثانية مما كان يرهق خصومهم))^(١).

وكان الملك فرناندو يراقب المعركة من حافات الحدائق ويشجع

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٥ - ٣١٦.

جنوده بالصمود وهو يرى المعركة أخذت بغير صالحهم ، فأخذ بإرسال تعزيزات لرفع معنوياتهم ، وفي المقابل ومن فوق أسوار مدينة بسطة كان النساء والأطفال يرسلون صرخاتهم لمقاتليهم بالصمود ، إلا أن تلك التعزيزات مكنت الجانب النصراني من تعزيز وجدوده واضطر المسلمون من أهالي بسطة إلى التراجع المنظم ووضع متاريس جديدة ، وبعد اثنتي عشرة ساعة من المعارك الضارية جاء الظلام ليرخي سدوله بين الفريقين وقد خيم الإعياء على الجانبين إلا أنه كان أشد على الجانب النصراني كونه في أرض جديدة وقريب من الأسوار فهم في مرمى أهالي وجيش مدينة بسطة ، وطوال الليل كثف أهالي بسطة رشقاتهم على النصارى مما منعهم من النوم والراحة وأوقعوا بهم جراحات بليغة ، وما أن سطعت أضواء صباح اليوم التالي أمام سور مدينة بسطة وإذا الجيش النصراني المنهك يصحو على جثث الكثير ممن فتك بهم المسلمون طوال الليل فضلاً عن العدد الكبير من الجرحى الذين صعب عليهم إنقاذهم ، وأمام هذا الموقف الصعب قرر الملك القشتالي سحب قواته إلى خلف الحدائق^(١).

أوقع هذا الهجوم الفاشل الإرباك في صفوف النصارى ، فتمركزه خارج حدود الحدائق والغابات يعرضه للكثير من المخاطر ، فالمدفعية لم تستطع أن تنال من أسوار المدينة ، كما أن كثرة المياه والأشجار

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٧- ٣١٩.

والأدغال سيعرض الجيش للأمراض ، فضلاً عن أن الأمطار إذا عادت ستغرق الجداول والمنطقة بالمياه وتعزل المدينة عن الجيش النصراني المحاصر لها ، وأما هذا الموقف قرر الملك القشتالي فرناندو إرسال رسوله إلى الملكة إيزابيلا المقيمة في مدينة جيان طالباً منها الرأي وفيما يعمل ، فردت الملكة فوراً بأنها خولت الملك وقادته بتقدير الأمر واتخاذ ما يلزم ، وفي حال استمرارهم بالقتال تعهدت بإرسال المزيد من المال والعتاد والرجال حتى تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة^(١) ، فساهم هذا الرد من الملكة على رفع معنويات الجيش الصليبي النصراني وقرروا الاستمرار في حصار بسطة.

كانت المنطقة الخضراء الكثيفة التي تحيط بمناطق من محيط مدينة بسطة تعد أهم معوقات تقدم الجيش الصليبي نحوها ، لذا قرروا اقتلاع تلك الأشجار ، فتقدم أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل من المشاة نحو أحد جهات المدينة فيما تقدم ستة آلاف فارس وعدد كبير من الشاة من الجهة المقابلة لهم ، وكان أغلب أولئك الفرسان من فرنسا والنمسا ، وهم مزودون بكل آلات الهدم والفؤوس ، وأخذوا يعملون بقطع الأشجار من أجل إزالة ذلك الغطاء الشجري الذي كان يحول بينهم وبين التقدم نحو المدينة ، وعبثاً حاول المدافعون من أهالي بسطة إيقاف ذلك ، وقد سخر الملك القشتالي معظم قواته لتحقيق ذلك الهدف ، وقد وصف إيرفنج

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

ذلك العمل الشاق بقوله كان فرناندو: ((يعرف مدى أهمية إزاحة هذا الحاجز الشجري الذي يشكل ما يشبه الستارة الحامية للمدينة ، فسخر كل قواته لقلعها ، رغم ما في هذا العمل من جهد عظيم مضن ، وما يحتاجه إلى صبر وجَلَد ، لأن الأشجار كانت ضخمة جداً ومتراصة وممتدة على مسافة شاسعة يصعب قطعها ، لكن الذي سخرهم الملك لهذا الشأن ، كانوا أربعة آلاف رجل ، ورغم كل ذلك كانوا لا يقطعون أكثر من عشرة أمتار-خطوات- مربعة في اليوم ، بما فيه من مقاطعة لعملهم بسبب مهاجمة العرب المتكررة ، لذلك استغرق العمل مدة أربعين يوماً كاملة ، قبل إزالة كل أشجار هذه-المصاطب- الحديقة))^(١).

وهكذا أصبحت مدينة بسطة عارية من بساطها الأخضر ومكشوفة بعد إزاحة أشجارها ، ثم عملوا على إحكام طوق حصار خائق حول المدينة في محاولة لعزلها تماماً ومنع وصول أي إمدادات إليها من الخارج ، فقاموا بحفر خندق عميق طوله ثلاثة أميال(أي ٦ كم) يربط بين المعسكرين اللذين طوقا المدينة ، وعنه حولوا مياه الجداول وحموه بالمتاريس ، وبنو على طوله خمسة عشر برجاً للمراقبة ، كما حفروا خندقاً آخر عميقاً لمسافة ستة أميال(أي ١٨ كم) عبر الجبال خلف المدينة ليصلوا بين معسكرهم من خلفها ، ودعموه بجائط ترابي وصخري ، كما حاول فرناندو بعد أن أطبق

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢.

جيشه الصليبي على مدينة بسطة من جميع جوانبها قطع المياه عن المدينة باقتراح من القس والمؤرخ النصراني أغاييدا الذي قال له: ((أهم لهؤلاء اللامؤمنين من الخبز ، لأنهم يغتسلون به يوماً من أجل وضوئهم الذي يجعلهم لاعمين ، فيتمتع بذلك رجال دينهم الشياطين ، بألف طريقة وثنية بالحمامات وسواها من مقرات اللذائذ ، التي لا نهتم بها نحن الإسبنيار المسيحيين))^(١) ، وعندما علم المسلمون عمدوا إلى نافورة قريبة منهم وحفروا منها قناة يتسرب منها الماء إلى داخل المدينة بحيث يصعب على النصارى تحويلها^(٢).

وفي الوقت الذي استمر الجيش الصليبي يحاصر مدينة بسطة وهي شامخة بوجهه ، حاول الملك القشتالي القيام بعملية لرفع معنويات جنده ، فأرسل عدد من جنوده بحملة تعرضية على مدينة وادي آش التي يتحصن بها السلطان أبو عبد الله الزغل ، وذهب إيرفنج إلى أن هذه العملية كانت تهدف إلى مباغته مدينة وادي آش والحصول على الغنائم ، وتشكلت القوة من ثلاثمائة فارس ومئتي راجل وتحركوا تحت جناح الظلام ووصلوا إلى أطراف مدينة وادي آش ونهبوها وساقوا معهم قطعان المواشي وعدد من الأسرى وانسحبوا ، وعندما أحس الزغل بذلك أرسل في إثرهم قوة تمكن الفرسان النصارى من هزيمتها ورجعوا إلى معسكرهم محملين

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢ نقلاً عن أغاييدا.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢.

بالغنائم وقد نالوا بذلك ثناء الملك القشتالي واستحسانه^(١).

كان صدق هذه الهزيمة التي حلت بجند أبي عبد الله الزغل فضلاً عن حصار مدينة بسطة وعجزه عن نجاتها ومعاناة أهلها وصرخاتهم تدوي في معظم أنحاء ما تبقى بيد المسلمين من الأندلس لاسيما غرناطة التي بقي فيها أبو عبد الله الصغير يتفرج لا يحرك ساكناً ، لذا تحرك العديد من أهالي غرناطة لنجدة المدينة المحاصرة وفعلاً تسلل العديد منهم إليها ، وحينما علم فرناندو بذلك قام بقطع ((كل إمداد يصل إلى المدينة ، ولتعرض أي قوة متطوعة من غرناطة ، ولأجل هذا الغرض بنى فرناندو أيضاً أراجاً جديدة على كل مرتفع إطلاق الإنذارات حين رؤية أية عمامة قادمة ، وهكذا بالتدريج أطبق بحصاره على سيدي يحيى ورفاقه الشجعان داخل أسوارهم ، بعزلهم عن بقية العالم ، وخط الأبراج المواجه للمدينة كان يعزز دوماً بقوات صليبية جديدة وإضافية من كل العالم المسيحي في كل أسبوع بعد أسبوع ، وعلى هذا المنوال راحت الأيام تمر وفرناندو ينتظر من الحامية الخور أو المجاعة كي تستسلم))^(٢).

وخلال أيام الحصار تلك لم يخلو يوم من مواجهات وهي كثر وفر من الجانبين ، وكانت الكمانن تُنصب من الجانبين توقع الخسائر بهم جميعاً ، كما تخلل ذلك أيضاً العديد من المبارزات الفردية

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٣- ٣٢٥.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٧.

التي تقع أمام الأسوار أو عند حافة الجبل القريب من بسطة ، وقد تفوق المسلمون أثناءها بشكل واضح وأوقعوا خسائر في العديد من رجالات النصارى ، مما دفع فرناندو إلى منع هذه المبارزات الفردية لأنه يعرف أن المسلمين متفوقون فيها مما سيضعف الروح المعنوية لجنده ، لذا فإنه كان يفضل القيام بهجمات بأعداد كبيرة ، وكان معول المسلمين الوحيد بعد أن انقطع أملهم بمساعدات من الزغل أو غيره هو أن يتعب النصارى من الحصار ويسود بينهم التذمر فينسحبوا^(١).

رابعاً : محاولات الاستغاثة

وفي تلك الأثناء أرسل أبو عبد الله الزغل استغاثة إلى سلطان مصر الملك الأشرف قايتباي الحمودي^(٢) لنجدة المسلمين في الأندلس ، فأرسل الأخير عدة سفارات إلى بعض زعماء النصارى آنذاك منهم البابا في روما وكذلك إلى ملكي قشتالة ، وبخصوص السفارة الأخيرة فقد أرسل اثنين من قساوسة بيت المقدس أحدهما يعرف أنطونيو ميلان ، وقد وصلا إلى أسبانيا في أواخر خريف سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م وهما يحملان رسالة من سلطان مصر إلى بلاط قشتالة يعاتبان فيها ملوك النصارى على ما يتعرض له المسلمون في

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٢) وهو أحد سلاطين المماليك الشركسة حكم مصر للمدة (٨٧٣ -

٩٠١هـ/١٤٦٨ - ١٤٩٥م)، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ١٢٢/٢.

الأندلس وغرناطة من غزو أراضيهم وسفك دمائهم في وقت كان ملايين من النصارى في مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات آمنين على أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم ، وطالب بالكف عن الاعتداء عن المسلمين وإيقاف غزو أراضيهم ، وبعبارة فإن السلطان سوف يضطر إلى المعاملة بالمثل لرعاياه النصارى ويمنع دخولهم إلى الأراضي المقدسة ، بل وقد يعمل على هدم قبر المسيح عيسى وكل الأديرة والمعابد في بلاده^(١).

وأضاف المؤرخ والقس المعاصر للأحداث ، بعد أن أعطى وصفاً دقيقاً للسفيرين ، أنهما هُتِدا ((ما لم تقف هذه الحرب ، ويستعيد مسلمو مملكة غرناطة كل ممتلكاتهم التي هُجروا منها ، سوف يعمد إلى قتل كل نصارى بلاده ، وإزالة كنائسهم وأماكن عبادتهم ، وأكثر من ذلك سوف يدمر كنيسة المهد والصليب المقدس ، هذا التهديد المرعب انتشر في كل الجزيرة))^(٢).

وقد جرت هذه المقابلة بين السفيرين وملك قشتالة فرناندو تحت أسوار مدينة بسطة وهو محاصر لها ، وجرى لهما استقبالاً حافلاً ومميزاً ، ثم سلما له رسالة سلطان مصر ، وقد وصف آغايبدا ذلك بقوله: ((لذلك استقبل فرناند هذين الرجلين بكل تميز أكثر من سواهم ممن يلبس لباس الرهبنة في قصره ويميز نفسه به ، وأمضى

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس،

٢٢١/٥.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٠ عن مخطوطة آغايبدا.

معهما أحاديث طويلة عن البلاد المقدسة ، ووضع المسيحيين والكنائس فيها تحت حكم هذا السلطان المصري ، وسياسة هذا الكافر تجاهاها ، وكان جواب الفرنسي سكان صريحاً وواضحاً ، بينما كان الملك يظهر مدى تميزه اللغوي في عصره ، رغم أنه قد أصغى في الواقع إلى همس صاحبيه المليء بالحكمة والتواضع والوضوح والطلاقة^(١).

وقد زعم آغاويدا أن السفيرين أظهرنا نوعاً من العطف والارتياح لما شاهداه من بطولات أبناء دينهم من النصارى وهم يجالدون أعداءهم المسلمين تحت أسوار مدينة بسطة وأخذوا بالدعاء لهم على عدوهم ، وتمنوا أن يمكنهم الرب من حملة صليبية أخرى إلى البلاد المقدسة ، إذ قال: ((إن ما سمعاه المبعوثان من الملك ، وما شاهداه في المخيم ، وهما محاطان بالفرسان والمجاهدين ، كان درساً حقيقياً لهما جعلهما يرسخان إيمانهما بالأراضي المقدسة أرض الصليب المقدس للرب سيدنا ، ومعاناة من يحفظهما من إخوانهم ، وما يقدمه لها الحجاج من نذورهم رغم كل الصعاب ، فهي باب النجاة التي ستظل مشعة على قلوب هؤلاء الرجال وهم يلبسون الزرد والحديد ، لكي يرفعوا من شأن الصليب بكل أباء على العدو ، وتواضع فيما بينهم ، يظهر بمدى عمق تبجيلهم لهؤلاء الزوار ، وخفض أصواتهم أمامهم ، وهم يخبرونهم أخباراً وقصصاً

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣١ عن آغاويدا.

عمّا حصل لهم من معارك مع هؤلاء الزنادقة ، وهم يقبضون على مقابض سيوفهم ، ويصرون على أسنانهم لما سيحصل مع إخوانهم هناك في الأراضي المقدسة ، وفي الوقت نفسه يصلون لهم دائماً ، ويدعون الرب أن يمكنهم من حملة صليبية أخرى إلى تلك البلاد^(١).

وبعد انتهاء مهمة السفيرين في مقابلة الملك القشتالي فرناندو ودعهما بمثل ما استقبلهما من حفاوة ، توجهها إلى مدينة جيان لمقابلة الملكة إيزابيلا وقد وصف إيرفنج نقلاً عن أغابيدا تلك المقابلة بقوله: ((واتجهوا نحو جين لزيارة أرفع ملكة كاثوليكية ، يعتبرون قلبها مقرأً لكل شفقة وإحسان - حين كانت تصلي وتسمع اغتصاب الأطفال أمامها في قصبة ملقة^(٢) - فاستقبلتهم كرجال مقدسين بهم ما يزيد عن كل كرامة إنسانية وظلوا بحضرتها طوال إقامتهم في المدينة ، وكان المحترم الأب السفير قد أعقد جلالته عباراته الأدبية

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢ عن أغابيدا.

(٢) وصف إيرفنج ما حصل لأطفال ونساء مألقة عندما دخلها ملكي قشتالة بقوله: (وقد حيل في كثير من الأحيان بين الأم وطفلها، كما تتفرق الأرواح عن أبدانها، أو اغتصبت طفلة أمام ناظر أبويها في زوايا الشوارع المعتمة للقصبة، وهكذا مزقت عائلات عن بعضها لكي لا تجتمع ثانية مدى الدهر، والأبناء عن آبائهم، والنساء عن أزواجهن، والأمهات عن أطفالهم، وحزنهم وألمهم هو مجال سخرية أعدائهم، النصراري، دافعهم لهم كي يعتدوا عليهم أكثر، من منطلق أن الخضوع يزيد من شراسة الغالب)، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٠.

اللاتينية الفخمة ، كما لاحظ مرافقوه الذين وجدوا إذناً صاغية من الملكة لها دوماً ، وكان هذا المجلس^(١) الملس^(٢) ينال دوماً الجوائز على تواضعه ، فقد أكد أغاويدا: أنها ضمنت له دخلاً سنوياً بقيمة ألف دوقة من الذهب لينفقها كما يشاء على رهبان الصليب المقدس في القدس ، وأكثر من ذلك وفي لحظة وداع هؤلاء السفراء قدمت لهما الملكة الكاثوليكية الورعة شالاً حاكته يداها الغاليتان ، كي يوضع فوق كنيسة القيامة في مكان الصليب المقدس ، كأثمن هدية دفعت إلى كل عبارات الشكر من حاملها ، مما دفع بالدموع إلى عيني كل هذا الحضور المقدس))^(٣).

ونرى أن ما أبادياه الملكان الكاثوليكيان تجاه سفراء سلطان مصر من حفاوة واستقبال يمثل قمة الدبلوماسية المزيفة ، فهما في الوقت الذي يظهران احترامهما للوفد الإسلامي كانا يمارسان أقسى أنواع التجويع والتهجير والقتل بحق المدن والقرى الإسلامية حول مدينة غرناطة ، ومع ذلك أجابا السلطان بكل أدب ومجاملة: ((أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا

(١) المجلس الكبير من الناس الذي لا يبرح مكانه وهو ذم لأنه لا يصلح إلا للزوم البيت، ينظر: الزيبيدي، تاج العروس، ٥٤٦/١٥ (مادة مجلس).

(٢) الملس قيل الخصي، وقيل الذي يبيع الشيء ولا يضمن عهده، وقيل الملس من الإفلات، وقيل الملس هو اللين الشديد، وهي كلها صفة ذم، ينظر: الزيبيدي، تاج العروس، ٥١٥/١٦ - ٥٢١ (مادة ملس).

(٣) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجنبي ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقيه الرعايا الآخرون من الرعاية^(١).

وهكذا انتهت هذه المهمة دون أن نرى نتائج ملموسة لنجدة المسلمين في الأندلس ، وقد أشار عنان إلى ذلك بقوله: ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكننا نرجع أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً في حوادث هذا العصر ، وليس في تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نقذ وعيده ، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة ، والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثاني^(٢) ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية ، وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد ، ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية ، وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التي بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم^(٣) ، كما علق خطّاب على ذلك قائلاً: ((ومن الواضح ، أن وعيد سلطان مصر كان كاذباً ، كما أن جواب

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٢/٥.

(٢) حكم السلطان بايزيد الثاني الدولة العثمانية للمدة (٨٨٦ - ٩١٢هـ/ ١٤٨١ -

١٥٠٦ م)، ينظر: فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٧٩ - ١٨٧.

(٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٢/٥.

الملكين له كان كاذباً أيضاً ، لا يصدقه كاتبه ولا غيره^(١).

خامساً: الهجوم الأخير واستسلام المدينة سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م

بعد أن انقطع أمل أهالي مدينة بسطة والمدافعين عنها من كل معين خارجي ، كان معولهم الوحيد هو أن يأتي الشتاء وتفيض الجداول فيضطر المحاصرون إلى التراجع تحت ضغط الطبيعة ، وقد أشار إيرفنج إلى أن قائد بسطة كان يعول على ذلك بقوله: ((إن موسم الأمطار على وشك الهطول ، وسينزل الفيضان من الجبال ، وستملاً الأنهار والوادي بالماء ، والملك الصليبي يعرف هذا جيداً ، وهو لم يجراً على مواجهة هذا الموسم بوادٍ معزول عن العالم بأفنيته ومياهه الفيضة ، فعاصفة شتوية من جبالنا سوف تزيل مدينته المطرزة هذه ، وكل شوارعها المزخرفة برشة برد يعقبها هطول))^(٢).

لم يكن ذلك التفكير ليغيب عن الملك القشتالي وزوجته ، فقد قررا أن يُحوّل المخيم إلى مدينة ثابتة بإمكانها أن تصمد لمقاومة الشتاء ، ولكي يقنع المسلمين أنه مصر على الاستمرار في الحصار واقتحام مدينة بسطة ، ولذا استدعى عدد كبير من المهندسين لسرعة البناء وانجاز العمل ، وما أن انتهوا من ذلك حتى فاجأهم المطر ينزل بغزارة فانهارت الكثير من البيوت التي تم بناؤها ، وتقطعت الطرقات وفاضت الجداول والأنهار ، وانقطعت الإمدادات ليوم واحد ، فساد الذعر في معسكر النصارى ، إلا أن الأمطار لم

(١) قادة فتح الأندلس، ٢/٢٣١.

(٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٦.

تستمر إذ توقفت ، وعادت مجاري الأنهار إلى وضعها السابق ، وما أن وصل الخبر إلى إيزابيلا في جيان حتى جندت ستة آلاف شخص واستدعت الخبراء في إصلاح الطرق والجسور وأمدتهم بكل ما يحتاجونه من مال ومعدات حتى أعادت كل ما هدمته الأمطار ، وبذلك تواصل تدفق الإمدادات إلى الجيش الصليبي المحاصر لمدينة بسطة^(١).

وخلال شتاء سنة ١٩٤ هـ / ١٤٨٨م أخذ المسلمون المحاصرون في مدينة بسطة يكتفون من غاراتهم على القوات الصليبية بقيادة الملك القشتالي فرناندو أملاً منهم في زعزعة موقف الأخير تحت ضغط الشتاء القاسي ، وفي الوقت نفسه أخذت الآمال تضيق بالمدافعين بسبب قلة التموين ونفاذ الأموال ، ومن أجل رفع معنوياتهم واستغلال وقت الشتاء خاطب القائد المسلم سيدي يحيى أهالي بسطة المقاتلين قائلاً: ((إن العدو لا يجرواً أن يواجه الشتاء وهجماتنا معاً ، لذلك سوف يرحل عنكم قريباً ، لتعودوا إلى أسركم ، ولكن عليكم تأمين رواتب الجنود حتى تحميكم ، فقد فرغت خزينتنا ، وقطع عنا المدد ، فمن المحال أن نظل ندافع دون عونكم))^(٢).

وقد لبي أهالي بسطة ذلك النداء من أجل إنقاذ مدينتهم من السقوط بيد الصليبيين ، فجمع النساء حليهن من ذهب وفضة لدفع رواتب الجنود ، وقد علق إيرفنغ على ذلك قائلاً: ((وهكذا صارت

(١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٧- ٣٣٨.

(٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠.

نساء بازا لا تبخل بجليها من أجل ذلك ، فليس من الحكمة أن تُصَفَّ الجوهرات على أيديهنَّ وبلادهنَّ والمدافعون عنها بحاجة إلى الخبز ، وهكذا رحنَّ يقدمنَّ أساورهنَّ وأطواقهنَّ وكل مجوهراتهنَّ إلى هذا السيد المدافع ، لكي يستمر بحمايتهنَّ وحماية أسرهنَّ ، لأنه إذا سقطت بازا فلا حاجة لهنَّ بأي حليٍّ ، يفرح بها ناهبوها ، وهنَّ سبايا لهم))^(١).

وبذلك تمكن القائد يحيى النيار من دفع رواتب جنده لكي يتمكنوا من الدفاع عن بسطة بروح عالية ، وعندما سمع الملك فرناندو بما فعل سكان بسطة من دفع المال للجنود على أمل انسحاب جيشه وترك الحصار قال: ((سأعطيهم برهاناً مقنعاً عن خطأ أمالهم هذه ، فكتب إلى إيزابيلا طالباً منها أن تحضر إلى المعسكر مع كل حاشيتها بشكل علني ، وتأخذ مكانها للإقامة معه في الشتاء ، وبذلك يقتنع العرب بتصميم الملكين النهائي على استمرار الحصار حتى تستسلم المدينة ، وقد تأكد بأن هذا سيسرع في إسقاطها))^(٢).

في الوقت أخذ الذي بعض الأمل يسود صفوف المسلمين المدافعين عن بسطة بأن صمودهم سيسهم في رفع الحصار ، إذ سمعوا هتافات الفرخ في صفوف الجيش الصليبي وأطلقت مدفعيتهم إحدى وعشرين طلقة تحيي زائراً كبيراً وصلهم ، فإذا هو موكب الملكة إيزابيلا مع جميع حاشيتها وحرسها ورجال بلاطها ،

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠- ٣٤١.

وقد وصف إيرفنج الموكب بقوله: ((...، إنها الملكة، وهي تركب بغلاً عليه غلالة مطرزة بالذهب وتحف بالأرض، وعلى يمينها تركب ابنتها الأميرة إيزابيلا الصغيرة على مطية مزخرفة بشكل مشابه رائع، وعلى يسارها كاردينال أسبانيا الأكبر، ويتبعهم نساء البلاط وكوكبة من الفرسان، مع حرس من ذوي الرتب العالية بسلاحهم الفائق))^(١).

وعندما تأكد أهالي مدينة بسطة من وصول الملكة إلى المعسكر الصليبي وانضمامها إلى زوجها سُقطَ في أيديهم، وقد علق أحد قادتهم على ذلك قائلاً: ((أيها الفرسان لقد حُسمَ مصير بازا))^(٢)، وقد اقترح البعض استغلال انشغال الجيش الصليبي بالملكة ومهاجمة ذلك الموكب، فاعترض القائد يجيى النيار على ذلك قائلاً: إن ((شخصية الملكة كأنثى تظل محترمة من كل الفرسان، عرباً كانوا أم أسباناً، وكل فرسانه يجسدون هذا الفهم الفروسي للأمر الذي تقره كل روح بطلة وثابة، خاصة وأنهم من خيرة وأنبل فرسان هذه الأمة))^(٣).

وأشار إيرفنج بأن أهالي مدينة بسطة هبوا بأجمعهم لمشاهدة ذلك الموكب وقد تدافعوا من على السور والأبراج ومنارات المساجد وكل شيء مرتفع للإطلال على هذا المنظر إذ((بعد أن تلاقى الملكان

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

(٣) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

وتبادلا القبل والتحيات الرسمية ، ليدخلا المعسكر على أنغام عسكرية ، ليجعلوا أعين اللامؤمنين تزيغ بين لمع حرايبهم ودروعهم المزركشة بالذهب ، وسروج خيولهم الحربية المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية بألوانها البراقة ، وبين الأنغام العسكرية التي تضرب الطبول والأبواق بكل عنف مع أصوات الهتافات التي يطلقها الجند لتشق عنان السماء))^(١) ، وأشار أيضاً أنه أمام انبهار أهالي بسطة وجنדה ودهشتهم وفرح النصارى بملكهم توقفت كل الأعمال الحربية بين الجانبين^(٢).

أدرك أهالي بسطة والقادة المدافعون عنها أن لا جدوى للمقامة وأن أي عناد سيؤدي إلى سفك المزيد من الدماء بدون مقابل ، لذا طلب قائد مدينة بسطة من الجانب القشتالي التفاوض ، وتشكلت هيئة من الجانبين اجتمعوا بين المعسكر النصراني والمدينة ، وقد حذر الجانب النصراني الوفد المسلم من عواقب ما حصل بالقة بسبب العناد ، ووعده بأن المدينة إذا سلمت فوراً أن يعاملون كرعايا وتحمى أملاكهم وحریتهم ودينهم ، عندها طلب الوفد المسلم الرجوع إلى المدينة للتشاور ، وبعد مشاورات بين القادة ووجهاء مدينة بسطة قرروا الطلب من الجانب النصراني السماح لهم بمفاتيح السلطان الزغل في مدينة وادي آش عن شروط الاستسلام ، وقد وافق الجانب النصراني على ذلك ، وسهل مهمة ذلك الوفد الذي

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣.

(٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣.

سيقابل السلطان الزغل^(١).

وصل وفد مدينة بسطة إلى وادي آش واجتمعوا مع الزغل وسلموه رسالة القائد يحيى النيار التي شرح له فيها ما وصل إليه حال مدينة بسطة وما حلت بهم من مصيبة ، عندها طلب الزغل منهم مشاورة أهل الحل والعقد والفقهاء بما يمكن عمله تجاه بسطة ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوصول قرار واحد ، وقد وصف إيرفنج حالة الاضطراب التي حلت بالسلطان الزغل وحاشيته بقوله: ((والواقع أن الزغل ما كان يثق بهذه الرسالة لو أنها جاءت من شخص آخر ، ولكنه كان يثق بسيدي يحيى كما يثق بنفسه ، لذلك أصابه ما في هذه الرسالة بالقلب ، فبعد أن قرأها شرد ذهنه طويلاً ، وظل في صمت مطبق ، ورأسه منحني على صدره ، وأخيراً عاد إلى نفسه طلب أهل الحل والعقد والفقهاء في غواديكس ، وأخبرهم بما حصل في بازا طالباً نصحتهم ، والزغل حين يطلب نصح الآخرين يكون منهك القلب ، قد هدأت روحه القتالية ، لأنه رأى نهاية حكمه تقترب ، ولم يفعل هؤلاء أكثر من إضفاء المزيد من البلبلة على فكره ، باختلاف آرائهم التي كانت كلها عقيمة ، فما لم تدعم بازا بجيش قوي ، لم تصمد ، وقد ثبت استحالة دعمها بشكل فعال))^(٢).

وهكذا لم يتوصل المجتمعون في وادي آش من حسم الموقف ، عندها اجتمع الزغل بالوفد بشكل منفرد وحملهم رسالة إلى القائد

(١) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣- ٣٤٤.

(٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٧.

يحيى النيار يطلب منه فيها أن يتصرف بما يراه مناسباً وأنه لا يمكنه مساعدته ، وعندما عاد الوفد إلى مدينة بسطة ، وقرر القائد يحيى النيار عقد شروط الاستسلام التي تضمنت: السماح ((لكل الجنود والفرسان الذين جاؤوا للدفاع عن المدينة من أماكن مختلفة أن يغادروا بسلاحهم وخيولهم وكل عتادهم ، أو أن يبقوا في الضاحية ويتمتعوا بدينهم وقوانينهم ، بعد حلف اليمين للملك ، ودفع الضرائب التي كانوا يدفعونها الملوك العرب له ، على أن تُسلم المدينة وقلعتها خلال ستة أيام ، خلالها يستطيع السكان الخروج بكل ما يملكون ، وأثناء ذلك يستلم قائد ليون خمسة عشر طفلاً من أبناء وجوه البلد ، وحين سيسلم سيدي يحيى وسيدي محمد^(١) هؤلاء الرهائن الذين من بينهم أولادهما ، يؤديا فروض الطاعة للملك والملكة))^(٢).

وهكذا بعد حصار دام ستة أشهر وعشرين يوماً استسلمت مدينة بسطة ، إذ أن حصار المدينة بدأ في رجب من سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م ، ودخلوها في العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ/ الموافق الرابع عشر من ديسمبر ١٤٨٩م^(٣) ، وأشار إيرفنج عقب ذلك بقوله: ((ودخل الملك

(١) وهو محمد بن حسان من وجوه مدينة بسطة وأحد القادة الذين شاركوا في الدفاع عنها، ينظر: إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

(٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٨ ؛ ينظر أيضاً: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/٢٢٦.

(٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٧ ؛ إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ٢٢٦ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في

والملكة في اليوم التالي من الفاتحين ، وقد أخرجوا منها خمسمئة أسير مسيحي ، استقبلهم المعسكر بالتهليل والفرح العام ،... ، وقد كانت خسائر الصليبيين في هذا الحصار عشرين ألف رجل ، مات منهم سبعة عشر ألفاً بالأمراض))^(١).

وقد وصف مؤلف مجهول مسلم معاصر للأحداث حالة المسلمين في مدينة بسطة وظروف تسليمها إلى النصارى بقوله: ((والمسلمون قائمون ببلدهم غالبون لعدوهم فكلما أراد الدنو من البلد قمعوه وردوه على عقبه خائباً خاسراً ، ولم يقدر على نصب نفض ولا عدة من آلة الحرب ، فلما كان شهر شوال شد عليهم الحصار وعمل على البلد سوراً من خشب وحفيراً عظيماً وجعل على ذلك الرجال والحرس لئلاً يدخل داخل من أنجاد الرجال إليهم الذين يأتون لنصرتهم وإعانتهم على عدوهم ولا من يجلب لهم الطعام ، فلم يعبأ المسلمون بما صنع بل كانوا يخرجون من النقب ويهبطون من على الأسوار ويقتلونهم في محلتهم ، وفي كل مسلك يسلكونه حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وكانوا يحملون المسلمين الواردين عليهم لنصرتهم بما يحتاجون إليه من الطعام فبقوا على هذه الحالة من شدة الحصار شهر شوال وذو القعدة وذو الحجة ، وفي آخر ذي الحجة من عام التاريخ تفقد أعيان البلد ما بقي في بلدهم من الطعام وذلك في خفية من العامة فلم يجدوا إلا ما يقام

= الأندلس، ص ٥٣ ؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢/٢٣٥.

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

بِهِ أَيَّامًا قَلِيلًا ، فَبِعَثْوِ الْمَلِكِ الرَّومِ وَطَلَبُوا مِنْهُ الْأَمَانَ عَلَى شُرُوطٍ اشْتَرَطُوهَا فَوَجَدُوهُ رَاجِبًا فِي ذَلِكَ فَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ هَدَنَةً وَالْكَلامَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمْ فِي حَقِيَّةٍ مِنَ الْعَامَّةِ فَأَجابَهُمْ بِجَمِيعِ مَا طَلَبُوهُ مِنْهُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَاشِرَ مَحْرَمِ الْحَرَامِ فَاتَحَ عَامَ خَمْسَةَ وَتَسْعِينَ وَثَمَانِ مِائَةَ أَدْخَلَ قَوَادِ الْبِلَادِ جَمْعًا مِنَ النَّصَارَى لِلْقَصْبَةِ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ فَمَلَكُوا الْقَصْبَةَ وَقَهَرُوا مَنْ كَانَ بِالْبَلَدِ مِنَ الْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ثُمَّ إِنَّهُمْ سَرَحُوا مَنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْجَادِ الرَّجَالِ وَالْفَرَسَانِ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُمْ يَعِينُونَهُمْ عَلَى نَصْرَةِ عَدُوهِمْ فَخَرَجُوا مُؤْمِنِينَ بِحِيلِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ وَأَمْتَعْتَهُمْ كَمَا شَرَطَ عَلَيْهِ قَوَادِ الْبَلَدِ فَسَارُوا إِلَى مَدِينَةِ وَاذِي آشٍ وَأَخْلَوْا الْبَلَدَ لِلنَّصَارَى وَخَرَجُوا إِلَى الْأَرْضِ بِمَا مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَمْتَعْتَهُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَتْرَكُوا شَيْئًا^(١).

أما عن مصير قائد المدينة يحيى النيار ومساعده محمد بن حسان اللذين طالما وقفوا مقاتلين مدافعين مجاهدين عن دينهم وبلدكم ومدنيتهم ببسالة وإخلاص ، فإن صاحب نبذة العصر لم يشر إلى ذلك ، أما الرواية النصرانية فذهبت إلى أنهما وتحت بؤس النكسة ولحظات اليأس ومغريات الدنيا هبطا في درك الخيانة ، واستسلما لمغريات الملكين الكاثوليكين فارتدا عن دينهم واعتنقوا النصرانية ، فتوجعا لهما نهاية سوء ، وقد علق إيرفنج ذلك بقوله: ((فاستقبلهما الملك والملكة بحفاوة بالغة وبلاطف زائد ، وأهدياهما من أفخر الهدايا ،

(١) نبذة العصر، ص ٩٦ - ٩٨.

كذلك قدما الهدايا إلى كل الفرسان معهما ، وتضمنت المال والثياب والخيول وباقي الأشياء الثمينة ، فامتن سيدي يحيى لهذه المقابلة ، ولهذا الكرم من فرناند وإيزابيلا إلى درجة أنه أقسم أن لا يرفع سيفه ثانية ضد مثل هذين الملكين الكريمين ، أما الملكة ولإعجابها بصموده وقدراته العسكرية وإخلاصه ، أكدت له أن وجوده إلى جانبها قد أنهى الحرب التي تدمر غرناطة ، وهكذا كانت الكلمات والمجاملات تخرج قوية من شفاه الملكين ، مما جعل سيدي يحيى النيار يعجب ويغمر بالكلام الذي تقوله إيزابيلا ، فشعر بولاء مفاجيء لها ، فطلب منها أن تضمه إلى حاشيتها ليخدمها ، وفي غمرة هذا الحماس المفاجئ طلب أن لا يكون سيفه في خدمتها فقط بل أن يستعمل كل نفوذه الذي كان عظيماً بإقناع مولاي الزغل بأن يسلم لها مدينتي غواديكس والمرية ، وأن يكف عن عدائه للملكين ، وقد كان تأثير هذا اللقاء الملكي قوياً جداً على هذا الفارس ، ليصل الأمر إلى دينه ، فقد تنور فحجأة بأن المحمدية بدعة هرطوقية ، وأعجب بالنصرانية كحقيقة دينية مستنيرة تخرج ملوكاً بهذا الشأن ، ولذا طلب أن يُعمد ، وأن يُحمل فوراً إلى الكنيسة^(١) ، وجدير بالذكر هنا أن تحول القائد يحيى النيار إلى النصرانية وتعميده كان سرياً كي لا يُعد مرتدّاً في عين شعبه^(٢) ، كما أنه سيُجند كل طاقته بعد ذلك لخدمة الملك النصراني عن طريق تخذيل الناس وثنيتهم عن المقاومة.

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٨.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

وأشار عنان إلى الوثيقة التي وقعها يحيى النيار مع مندوب الملك فرناندو في ٢٥ ديسمبر سنة ١٤٨٩م (محرم ٨٩٥هـ) وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية ، بأنه سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم في داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشرف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى : وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمني وتعاونني برجالك ، فإنني سوف أكرم ذلك طول مدة الفتح ، حتى لا يتقوّل عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سراً في غرفتي ، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادي آش ، وأن الكروم والقرى والحصون التي تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير ألمرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدي لك بذلك أنا والملكة زوجي ، وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك ، أي مغرم أو جزية في سائر مملكتي إلى الأبد ، وأنه تشريعاً لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارساً مسلحون يكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت في أنحاء مملكتي ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك ، وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادي آش عن نصف الملاحات التي أهبها إليه ، فإنني أهبك دخلاً قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدي في ملاحات دلالية^(١) ، وفضلاً عن ذلك ،

(١) دلالية بلد بالأندلس قرب ألمرية، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان،

فإنه إذا تم تسليم وادي آش في الموعد المتفق عليه ، فإنني مكافأة لك على جهودك في خدمتي لدى ملك وادي آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم^(١).

سادساً : نتائج سقوط مدينة بسطة

كان من أولى نتائج سقوط مدينة بسطة بيد القوات الصليبية بقيادة ملكي قشتالة أن ساد حالة من الذعر في معظم المناطق التي كانت في حوزة المسلمين من الأندلس ولاسيما مناطق شرق غرناطة ، فسارعت معظم المدن والحصون القريبة من بسطة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى ، وقد علق صاحب نبذة العصر (وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله: ((ثم إن ملك الروم دمره الله جعل في البلد قائداً من قواده حاكماً ورتبه وأشحنه بما يحتاج إليه من أطعمة وزاد وآلة حرب ، وارتحل من مدينة بسطة يريد المرية فلم يمر على حصن ولا على قرية إلا ودخل أهلها في ذمته وتحت طاعته من غير حصار ولا قتال))^(٢) ، ولم تختلف عن ذلك الرواية النصرانية ، فقد أشار إيرفنج إلى أنه بعد سقوط بازا (بسطة) استسلمت معظم الحصون والجبال القريبة بشكل سريع إذ ((كان الناس يأملون بالحصول على شروط جيدة

(١) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥ - ٢٢٦؛ ينظر أيضاً : خطاب، قادة فتح

الأندلس، ٢٣٦/٢.

(٢) مؤلف مجهول، ص ٩٨.

شبيهة بالتي أعطيت لهذه المدينة ، كما أمل أسياذ هذه المناطق بجوائز مشابهة للتي حصل عليها قادتهم ، ولم يخب أمل أيّ منهم ، فقد سمح ببقاء السكان كخول للنصارى ليقبوا في أملاكهم وعلى دينهم ، أما أسياذهم الذين راحوا يتوافدون على المعسكر لإعلان ولائهم ، فكان فرناندو يستقبلهم بشكل متميز ، ويحملهم الهدايا والأموال حسب أهمية المكان الذي كان تحت قيادتهم وسلموه ، وكان الملك حريصاً على عدم التعرض لكرامتهم أو جرح كبريائهم ، لذلك كانت الأموال تدفع لهم جزاء خدماتهم للحكومة السابقة ، وهكذا بعد أن كان فرناندو يفتح البلاد بالسيف ، وجد بعد بازا أن الذهب يكلفه أقل^(١).

وهكذا تحول يحيى النيار من مجاهد بطل إلى معول هدم وقذوة سيئة لبقية زعماء تلك الحصون الذين سارعوا إلى الارتقاء في الخيانة وسلموا ما تحت أيديهم دون مقاومة مقابل شراء ذممهم بالأموال التي أغدقها عليهم الملك النصراني ضانين أن ما فعله المجاهد والورع يحيى النيار هو الأصح بلدهم ودينهم دون أن يطلّوا على خفياها.

إلا أن علي بن فهر قائد حصن برشانة ، وهو أحد الحصون التابعة لبسطة - عندما رأى زعيمه يحيى النيار وبقية رؤساء الحصون يتهافتون على هدايا الملك النصراني وقف صامتاً حين تسليم حصنه ، وعندما قُدمت له الهدايا من قبل فرناندو رفضها بكل إباء كما ذكر إيرفنج قائلًا: ((أنا مسلم ومن أصول عربية ومغربية ، وسيد مدينة وقلعة

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

برشينا وياتريا اللتين عَهدتا لي كي أدافع عنهما ، ولكن من عهدهما قد فقد كل قوته وشجاعته ، وطلب الأمن والدعة فقط ، وهذه الحصون قد صارت إليك أيها الملك ، لأنه لم يعد معي من أدافع عنها به ، ولك أن ترسل من تشاء لأخذها ، فقد تركتها الحاميات التي فيها ، فأمر فرناند بمال كثير له لأهمية هاتين القلعتين ، لكن السيد رفضها بكل إياء قائلاً: لم أت لبيع ما لا أملك لمن لا يستحق ، ولكن لأخضع بعد أن خضع سادتي ، فتأكد يا صاحب الجلالة أنه لو تركت لي الفرصة لاخترت الموت على هذا الموقف المهين ببيع قلاعي ، فلا حاجة لي بذهبك))^(١).

وقد أعجب الملكان الكاثوليكيان من جرأة هذا القائد المسلم وشهامته ، فطلبت منه الملكة إيزابيلا أن يكون في خدمتها قائلة: ((بماذا يمكننا أن نكافئك؟ فأجاب: لقد تركت في الوادي والبلاد التي كنت أحميها الكثير من العائلات التعييسة مع أبنائها وشيوخها الذين لا يمكن قلعهم من وطنهم ، وكل ما أريده هو وعد من جلالتكم بأن يبقوا ، وتحمونهم وتبقوا على دينهم وبيوتهم ، فأجابت الملكة: لك هذا ، أما لنفسك فماذا ، ماذا تطلب لنفسك؟ ، فرد: لا شيء سوى أن أعادر دون أن أنهب أنا وحصاني هذا إلى إفريقيا))^(٢) ، وأضاف إيرفنج((أن الملكان زوداه براحلة فخمة ومثلوا خرجها ذهباً ، لكن علي بن فهر رفض ركوبها ، مؤكداً لهما أنه

(١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٠.

(٢) إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٠.

يعتبر نفسه مجرماً ، لو فعل وأبناء بلاده في هذه الحال ، ورفض كل مال يناله من خراب بلاده ، واكتفى بجواز سفرٍ منهما تحرك به مع حشمة وخدمه ودروعه وكل أدواته الحربية ، مودعاً أصحابه وبلاده دون أن يذرف قطرة دمع واحدة ، ثم وجه حصانه العربي بعيداً عن هذا الوادي الرائع موطنه المغلوب ، مغادراً بقافلته الصغيرة الوحيدة بكرامته نحو الرمال المحرقة الإفريقية^(١).

ومن النتائج المباشرة لسقوط بسطة هو استيلاء النصارى على مدينة المرية ، إذا بعد شهر من سقوط بسطة توجه فرناندو نحو مدينة المرية التي سلمت هي الأخرى دون قتال وذلك في ربيع من سنة ٨٩٥هـ/شباط ١٤٨٩م ، وكانت شروط تسليمها قريبة من تلك التي منحوها لمدينة بسطة وخلاصتها: ((أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ، وألاً يولى عليهم يهودي ، وألاً يدخل نصراني في الجماعة ، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذي يريدون عند البلوغ))^(٢).

وهكذا بعد سقوط كل من مدينتي بسطة والمرية والحصون التي بينهم لم يبق أمام الملك النصراني سوى مدينة وادي آش التي كان يتحصن بها الزغل ، وهنا جاء دور القائد يحيى النيار الذي لم يطلع أحد على خيانتة ، فأرسله الملك النصراني إلى صهره أبي عبد الله

(١) أخبار سقوط غرناطة، ٣٥٠.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٧/٥.

الزغل ليقنعه بعدم جدوى المقاومة وضرورة تسليم مدينة وادي آش والانضواء تحت طاعة الملك النصراني ، وخلال المواجهة تمكن النيار من إقناع الزغل وأثمرت خيانتته لدى صهره الزغل ، وقد علق صاحب نبذة العصر (وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله: ((ثم خرج الأمير مُحَمَّد بن سعد من مَدِينَة وَادِي آش تَابِعاً لَصَاحِب قَشْتَالَة فَلَمَّا لَحِقَهُ بَايَعَهُ وَدَخَلَ فِي ذِمَّتِهِ وَتَحَت طَاعَتِهِ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ مَدِينَة وَادِي آش وَكُل مَدِينَة وَحَصَن وَقْرِيَة كَانَتْ تَحَت طَاعَتِهِ وَحَكَمَهُ ، فَأَجَابَهُ إِلَى مَطْلَبِهِ وَرَجَعَ مَعَهُ إِلَى وَادِي آش وَهُوَ فَرِحَ مَسْرُورًا فَدَخَلَهَا الْعَدُو وَقَبِضَ قَبْضَتَهَا وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ عَامِ خَمْسَةِ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِ مِئَةً وَدَخَلَ فِي ذِمَّتِهِ جَمِيعَ فَرَسَانَ الْأَمِيرِ مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدٍ وَجَمِيعَ قَوَادِهِ وَصَارُوا لَهُ عَوْنًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَطَوَعُوا لَهُ جَمِيعَ الْبِلَادِ وَالْقُرَى وَالْحِصُونِ الَّتِي كَانَتْ تَحَت طَاعَتِهِمْ مِنْ مَدِينَةِ الْمَرِيَةِ إِلَى مَدِينَةِ الْمَنْكَبِ وَمِنْ مَدِينَةِ الْمَنْكَبِ إِلَى قَرْيَةِ الْبَذُولِ فَقَبِضَ صَاحِبُ قَشْتَالَةِ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا حِصَارٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَجَعَلَ فِي كُلِّ قَبْصَةٍ قَائِدًا نَصْرَانِيًّا مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّصَارَى يَحْكُمُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، وَفِي هَذَا الشَّهْرِ خَلَصَتْ جَمِيعُ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ لَصَاحِبِ قَشْتَالَةِ وَدَخَلَتْ تَحَت طَاعَتِهِ وَتَدَجَّنَ جَمِيعُ أَهْلِهَا وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ غَيْرُ مَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى خَاصَّةً))^(١).

(١) مؤلف مجهول، ص ٩٩ - ١٠٠.

لم يبق أمام ملكي قشتالة سوى غرناطة ، وكان أبو عبد الله الصغير قد دخل في طاعتهما ولم يحرك ساكناً طيلة مدة الصراع الذي دار بين عمّه الزغل وبين النصارى ، بل كان خنجر خاصرة له عن إيجاد مدينة بسطة عندما حاصرها النصارى ، لذلك بعد سقوط بسطة ووادي آش واستسلام عمّه الزغل ، اضطر أبو عبد الله الصغير إلى تجديد المعاهدة مع ملكي قشتالة ، وقد أنحى أبو عبد الله الصغير بالأئمة على خصمه أبي عبد الله الزغل لما آلت إليه الأمور في غرناطة ، ففي رسالة وجهها إلى قائد بلدة أجيغر نعى فيها ((على معارضيه مواقفهم ، التي انتهت بسقوط بسطة: التي أفجعت المسلمين ، وفلّت غرب الدين))^(١).

وعليه فإن سقوط مدينة بسطة كان فاتحة لسقوط معظم المدن والحصون الأندلسية بسهولة ويسر وبدون قتال ، وهذا أدى إلى عزل مدينة غرناطة التي بات سقوطها أيضاً محتوماً ، وقد تحقق للنصارى ذلك بعد حوالي سنتين من سقوط بسطة ، إذ تمكن الملكان الكاثوليكيان من الاستيلاء عليها في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/ الموافق الثاني من كانون الثاني ١٤٩١م^(٢).

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٠/٥ ؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٤٠/٢.

(٢) ينظر التفاصيل عن سقوط غرناطة : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ١٢٠ - ١٢٨ ؛ إيرفنج، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٤ وما بعدها ؛ السلاوي، الاستقصا، ١٠٣/٤ - ١٠٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٩/٥ - ٢٦٤.

الفصل الخامس

الحركة الفكرية في مدينة بسطة

حكم المسلمون مدينة بسطة للمدة (٩٢-٨٩٥ هـ/٧١٠-١٤٨٩م) أي حوالي ثمانية قرون أقاموا خلالها حضارة شامخة تألفت فيها إسهامات أهلها في معظم الميادين السياسية والاقتصادية والفكرية ، وقد مرّ الكلام عن دور أهلها الاقتصادي والسياسي في الفصول السابقة ، وسنعرض هنا لدورهم الفكري.

سكن مدينة بسطة العديد من القبائل العربية إلى جانب أهلها من الأسيان الذين دخل بعضهم الإسلام فكان منهم المولدين ، وقد أسهم هؤلاء جميعاً في رقد الحركة الفكرية في بسطة والأندلس عامة ، وبرع العديد منهم في مجالات علم القراءات ، والحديث ، والفقهاء ، واللغة ، والأدب والشعر ، والتاريخ ، والكلام ، نذكر منهم:

- أحمد بن أحمد بن هشام السلمي ، يكنى أبا جعفر ، كان عالماً بالقراءات ، وقرأ على أبي عبد الله بن الفخار وولي الخطابة بمدينة بسطة ، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م^(١).

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١/١١٥.

- أحمد بن دريد الكاتب ، يكنى أبا عامر ، شاعر من أهل
بسطة ، ذكره ابن سعيد ، قال: ومن شعره في رجل يلقب بالفار تَابَ
عَنْ شَرِبِ الْخَمْرِ:

أَتَانِي عَنِ الْفَارِ الْحَقِيرِ بِيَانِهِ

تَحْرَجُ عَنْ شَرِبِ الْكُثُوسِ الدَّوَائِرِ

فَقُلْتُ لَهُمْ سِرُّ جَهَانْتُمْ مُرَادُهُ

وَأِنِّي لَعَلَّامٌ بِغَيْبِ السَّرَائِرِ

فَمَا عَابَ شُرْبَ الْخَمْرِ إِلَّا لِأَنَّهَا

تُلَوِّحُ بِأَعْلَاهَا عُيُونُ السَّنَانِيرِ^(١)

- أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن
محمد بن سعدة بن سعيد بن مسعدة العامري ، يكنى أبا جعفر ، من
أهل غرناطة سكن بسطة وتولى القضاء بها ، وصفه ابن الخطيب بقوله:
(كان صدراً جليلاً ، فقيهاً مضطرباً ، من أهل النظر السديد
والبحث ، قائماً على المسائل ، مشاركاً في كثير من الفنون ، جزلاً
مهماً ، جارياً على سنن سلفه ، رياناً من العربية. وختم سيبويه تفقهها ،
وقرأ الفقه ... ، وكان صدراً في الفرائض والحساب ، وألف تاريخ قومه
وقربته)) وتوفي بالقة سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م^(٢).

- أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب ، يكنى أبا جعفر ،

(١) المغرب في حلى المغرب، ٧٨/٢.

(٢) الإحاطة، ٥٦/١، ٥٧-

محدث أخذ عن أبي مُحَمَّد بن سماك وغيره ، كَانَ عَارِفًا بالمسائل
وَالْأَحْكَامَ جَيِّدَ الْمَعْرِفَةِ بالوثائق ، ولي الْقَضَاءَ بِأَمَاكنَ مِنْهَا بسطة
وَمَاتَ فِي شَعْبَانَ سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣١م^(١).

- أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن محمد بن
مصادف بن عبد الله ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن مصادف ، من
أهل بسطة ، تعلم القراءات ببسطة على عدد من مشايخها ، ثم انتقل
إلى غرناطة ، كان معاصراً لابن الخطيب ، ويبدو أن علاقته به لم تكن
حميدة لذا ذمه بقوله: ((رمى بنفسه على مشيخة الوقت يطرقهم
طروق الأمراض الوافدة ، حتى استوعب الأخذ عن أكثرهم ، يفكّ
عن فائدته فكّ المتبرّم ، وينتزعها بواسطة الحيا ، ويسلّط على قنصها
جوارح التبذّل والإطراء ، إلى أن ارتسم في المقرئين بغرناطة ، محوّلاً
عليه بالنحّب والملق ، وسدّ الترتيب المدني ، ولوثة تعتاده في باب
الرّكوب والثّقافة ، وهو لا يستطيع أن يستقرّ بين دفتي السّرج ، ولا
يفرق بين مبسوط الكف ، أخذ نفسه في فنون ، من قرآن ، وعريّة ،
وتفسير ، وامتحن مرّات لجرّ حركة القلقلّة الذي لا يملك عنانه ، ثم
تخلّص من ذلك ، وهو على حاله إلى الآن))^(٢) ، فهو من أبناء القرن
الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

- الأفوه الخراز البسطي ، ذكر ابن سعيد أنه كان خرازاً ببسطة
وتولع بالأدب وصار ينظم ويمدح الأعيان ، فاشتهر اسمه ومن نظمه

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٢٩١/١.

(٢) الإحاطة، ٨١/١.

قوله من قصيدة يمدح بها وزير ابن حبوس^(١) ملك غرناطة:

إِلَيْكَ رَحَلْنَاهَا قَلَائِصَ ضُمِّرًا

لِنُبْغِي بِهَا الْمَجْدَ الْمُثَلَّ وَالغَنَى

فَأَقْسَمَ لَنَا يَنْتَابَ رِبْعَكَ قَاصِدَ

وَيَرْجِعُ عَنْهُ دُونَ أَنْ يَبْلُغَ الْمُنَى

وَكَمْ رُمْتَ أَنْ أَبْغِي سِوَاكُمْ وَإِنَّمَا

ثَنَانِي لَكُمْ مَا سَارَ عَنْكُمْ مِنَ الثَّنَا

وقوله:

أَيُّ قَلْبٍ إِذَا رَحَلْنَاكُمْ يُقْرِيكُمْ

سِرْفَائِي خَلْفَ الرِّكَابِ أَهْيَمُ

لَنَا نَعِيمٌ إِلَّا بِحَيْثُ حَالَتْكُمْ

وَإِذَا غَبَيْتُمْ فَلَيْسَ نَعِيمٌ

كَلْمٌ وَنِي وَعَلَّوْنِي بَوْعْدِي

وَصِرْلُونِي فَإِنَّ قَلْبِي كَلِيمٌ^(٢)

(١) باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي تولى الإمارة في

غرناطة سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م وامتد سلطانه إلى بسطة وتوفي سنة ٤٦٩ هـ

/١٠٧٦ م، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢١١-٢١٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب، ٢/٧٩.

- الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي الفهري ، يكنى بأبي علي ويعرف بابن الناظر ، نشأ بقرنطة وتولى قضاء بسطة فحمت سيرته ، اشتهر بالقراءات القرآنية ، وصفه ابن الخطيب بقوله: ((كان من بقايا أهل الضبط والإتقان لما رواه ، وآخر مقرئي القرآن ، ممن يعتبر في الأسانيد ومعرفة الطرق والروايات ، متقدماً في ذلك على أهل وقته ، وهو أوفر من كان بالأندلس في ذلك))^(١) ، له رحلة إلى العديد من مدن الأندلس ، وله مصنفات عدة منها: منها المسلسلات ، والأربعون حديثاً ، والترشيد في صناعة التجويد ، وغيرها ، توفي بقرنطة سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٩م^(٢) ، وقيل سنة ٦٧٩ هـ/١٢٨٠م^(٣).

- رضوان بن خطاب ، يكنى أبا النعمان ، من أهل قرنطة سكن بسطة وتولى القضاء بها ، وله رواية عن أبي أمية إبراهيم بن منبه^(٤) وكان جليلاً أصيلاً ، توفي في حدود سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م^(٥).

- سفيان بن أحمد بن عبد الله بن محمد يعرف بابن الإمام

(١) الإحاطة، ٢٥٩/١.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٦٠/١ ؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٢٧.

(٣) السيوطي، بغية الوعاة، ٥٣٥/١ ؛ الداوودي، طبقات المفسرين، ١٥٤/١ - ١٥٥.

(٤) إبراهيم بن منبه بن أحمد بن عمر الغافقي من أهل المرية كان عالماً بالقراءات وله رحلة إلى المشرق، توفي بعد سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م، ينظر: ابن الأبار، التكملة، ١٢٩/١.

(٥) ابن الأبار، التكملة، ٢٥٩/١.

يكنى أبا محمد ، من أهل مدينة بسطة ، ثم انتقل إلى مرسية ، محدث روى عن أبي القاسم بن حبيش^(١) ، قال ابن البار رأته بمرسية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م^(٢) .

- عبد الرَّحْمَن بن عبيد الله ، من أهل بسطة ، ذكر ابن البار أنه من الرواة عن مالك^(٣) من أهل الأندلس ، قال: وَكَانَ مَالِكُ لَهُ مَكْرَمًا^(٤) ، وهذا يعني أنه من أبناء القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي.

- عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد النَّصَارِيّ الأندلسي ، يكنى أبا مُحَمَّد ، من أهل بسطة ، شيخ فاضل ، اشتهر باللغة اللُّغَوِيّ ، قرأها على أبي مُحَمَّد بن زَيْدَانَ الْمَكِّيّ اللُّغَوِيّ ، وصنّف كتابا في التفسير سَمَّاهُ رِي الظَّمَانَ فِي مِثَابَةِ الْقُرْآن ، توفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م^(٥) .

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش، يكنى أبا القاسم، من أهل قرطبة، فقيه ومحدث وأديب ونسابة، توفي سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م، ينظر: الضبي، بغية الملتبس، ص ٣٥٧- ٣٥٨.

(٢) التكملة، ١٢٨/٤ .

(٣) مالك بن أنس بن مالك الحميري، فقيه أهل المدينة وصاحب كتاب الموطأ، توفي سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م، ينظر: ابن سعد، الطبقات، ٤٦٥/٥ - ٤٦٩ .

(٤) التكملة، ٣/ ٤؛ وذكر ابن الفرضي أن عبد الرحمن بن عبيد الله الذي يروي عن مالك بن أنس من أهل الأصبونة إلا أنه كان يتردد على قرطبة، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢١١ .

(٥) السيوطي، بغية الوعاة، ٤٨/٢ ؛ النويهض، معجم المفسرين، ٣١٣/١ .

- عبد الله بن عيسى بن محمد التادلي القاضي الأديب ، من أهل تادلا ، إلا أنه سكن مدينة بسطة وتولى القضاء بها ، وكان أديباً شاعراً ، وتوفي بالمغرب قبل سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م^(١) .

- عبد الله محمد بن سعيد بن أيوب بن الحسن بن منخل الغافقي ، يكنى أبا محمد ، سكن بسطة وولي القضاء بها ، له رحلة إلى المشرق وأجازه العديد من المشاركة ، صنف كتاب المنهاج في ترتيب نوازل ابن الحاج ، ثم رجع إلى غرناطة وتوفي بها سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م^(٢) .

- عبد الله بن يحيى بن محمد بن أحمد بن زكريا بن عيسى ابن محمد بن يحيى بن زكريا الأنصاري الأوسي ، يكنى أبا محمد ، من أهل غرناطة ، سكن بسطة وتولى القضاء بها ، كان محدثاً عالماً بالأحكام والفرائض والحساب والجبر والمقابلة ، توفي على القضاء ببسطة سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م^(٣) .

- عبد الملك بن ملحان ، يكنى أبا مروان ، من أهل بسطة وتولى الإمارة فيها قبيل دخول المرابطين إليها ، كان مناهل أهل

(١) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديدياج، ص ٢١٤ ؛ السجلماسي، إتخاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ٥٥٩/٤ - ٥٦٠ .

(٢) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديدياج، ص ٢١٨ ؛ كحالة، معجم المؤلفين، ١٢٠/٦ .

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ٣١٥/٣ - ٣١٦ ؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٥٢ .

الأدب والشعر ، ومن شعره:

يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَنْسَانِي

مَنْ ذَكَرَهُ عُمْرِي مِنْ شَانِي

أَجْهَدُ فِي وَدِّي لَهُ دَائِباً

وَكُلُّ خَلٍّ عَنْهُ يَنْهَانِي^(١)

- أبو الحسن عليّ بن عبد العزيز بن شَفِيع البسطي ، يكنى أبا الحسن ، كان عالماً بالقراءات ، واشتهر بالشعر ، وصفه ابن سعيد أنه عالم بسطة ، ومن شعره قوله:

لِي نَفْسٌ لَوْ أَنَّهَا تَرَدُّ النَّارَ

لَمَا كَلَّفَتْ سِوَاهَا الشَّفَاعَةَ

قَنَعَتْ بِالْعَصَافِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

فَاسْتَرَأَتْ مِنْ دَهْرِهَا بِالْقَنَاعَةِ^(٢)

ومن شعره أيضاً:

شَرِيعَةُ الْحُبِّ شَرْعِي وَالْهَوَى دِينِي

بِهِ أَدِينُ لِيَوْمِ الْحَشْرِ وَالْدِّينِ

قُلُوبُ أَهْلِ الْهَوَى فِي الْحُبِّ خَافِقَةٌ

مِثْلَ الْعَصَافِيرِ فِي أَيْدِي الشَّوَاهِينِ

(١) ابن سعيد، المغرب، ٧٨/٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب، ٧٨/٢.

أَوْ كَالْعَيْيدِ تَعَدُّوْا مَا بِهِ أَمْرُو
 أَوْ كَالجُنَّاقَةِ بِأَبْوَابِ السَّلَاطِيْنِ
 قَالُوْا عَلِقْتِ صَخِيْرًا قُلْتُ وَيَحْكُمُ
 مَا رَقَّتِ الْقَضْبُ رَقَّتْ عَطْفَةُ اللَّيْنِ
 وَالسَّهْمُ أَمْضَى مِنَ الْخَطِيْئِ إِنْ لَهْ
 بِأَسَا يُرَوِّعُ أَنْبَطَالَ الْمِيَادِيْنِ
 قَالُوْا فَصَفِ حَسَنَةً إِنْ كُنْتَ تُحْسِنُهُ
 فَقُلْتِ يَمَأْ أَوْرَاقِ الدَّوَاوِيْنِ
 الْغُصْنِ قَامَتْهُ وَالْبَدْرِ طَلَعَتْهُ
 وَالنَّجْمِ يَرْقُبُهُ عَنْ لَحْظِ ذِي هَوْنِ
 كَأَنَّهُ كَانَ صَنُو الشَّمْسِ فَاقْتَسَمَا
 مَا أَبْرَزَ الْكَوْنُ مِنْ حَسَنِ وَتَحْسِيْنِ
 فَسَلَّمَتْ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ لَهُ
 شَرَعَا وَقَالَتْ أَخِي وَالْثُلُثُ يَكْفِيْنِي^(١)

- علي بن عبد العزيز بن محمد بن مسعود القيسي ، يكنى أبا الحسن ، من أهل بسطة ، ثم غادرها إلى فاس ، اشتهر بعلم القراءات أخذها من أبي عبد الله بن بالغ البسطي خطيب جامع

(١) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٧٩/٢ - ٨٠.

بسطة^(١) المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م^(٢) ، فهو من أبناء القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

- علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني ، يكنى أبا الحسن ، من أهل بسطة ، ثم تحول إلى غرناطة ، اشتهر بعلم القراءات ، وهو شيخ ابن الخطيب ، قال عنه: ((قرأ على أبيه ببلده بسطة القرآن ، بالروايات السبع ، وجمعها في ختمة))^(٣) ، كما برع في الشعر والأدب ، ومن شعره:

روض المشيب تفتّحت أزهاره

حتى استبان ثغامه وبهارة

ودجى الشباب قد استبان صباحه

وظلامه قد لاح فيه نهاره

فأتى حمام لا يعاف وقوعه

ومضى غراب لا يخاف مطاره

والعمر مثل البدر يرمق حسنه

حيناً ويعقب بعد ذلك سراره

توفي بغرناطة سنة ٧٣٠ هـ/١٣٢٩م^(٤).

(١) ابن الأبار، التكملة، ٣/١٩٦.

(٢) ابن الأبار، التكملة، ٢/١٠٦- ١٠٧.

(٣) الإحاطة، ٤/٨١.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ٤/٨١- ٧٤؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات

القراء، ١/٥٥٧- ٥٥٨؛ السيوطي، بغية الوعاة، ٢/١٨٠.

- علي بن محمد الزهري ، من أهل بسطة ، يكنى أبا الحسن ،
اشتهر بعلم القراءات ، وتصدر التدريس بها في بلده بسطة ، كما
تولى الصلاة والخطبة في جامعها ، قال ابن الأبار(ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م):
أخذ عنه لقراءات بعض أصحابنا^(١) ، وهذا يعني أنه من أبناء القرن
السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

- علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير
بالقصادي ، من أهل بسطة ثم انتقل إلى غرناطة ، كان عالماً فاضلاً
صالحاً شريف الأخلاق سالم الصدر ، له تأليف أكثرها في الحساب
والفرائض منها: كتاب أشرف المسالك إلى مذهب مالك ، وكتاب
شرح مختصر خليل ، وشرح الرسالة والتلقين ، وهداية الأنام في
شرح مختصر قواعد الإسلام ، وشرح رجز القرطبي ، وتنبیه
الإنسان إلى علم الميدان ، والمدخل الضروري ، وشرح ايساغوجي في
المنطق ، وشرح الأنوار السننية في الحديث ، وشرح رجز الشران ،
وشرح حكم ابن عطاء ، ورجز قاضي الجماعة أبي عمرو بن منظور
في أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى البردة ، وعلى رجز
ابن بري ، وعلى رجز أبي إسحاق بن فتوح في النجوم ، وعلى رجز
أبي مقرع ، والنصيحة في السياسة العامة والخاصة ، وهداية النظر
في تحفة الأحكام والأسرار ، وكشف الجلباب عن علم الحساب ،
وكشف الأسرار عن علم الغبار والتبصرة ، وقانون الحساب في مقدار

(١) التكملة، ٣/٢٣١.

التلخيص وشرحه ، وشرح ابن الياصمين في الجبر والمقابلة ومختصره ، وكليات الفرائض وشرحها ، والضروري في علم الموايظ ، والمستوفي لمسائل الحوفي ، وشرحان على التلمسانية الأكبر والأصغر ، وشرح فرائض صالح بن شريف ، وشرح فرائض مختصر خليل ، وفرائض التلقين ، وفرائض ابن الحاجب ، والعتبية في الفرائض ، وغنية النحاة وشرحها الأصغر والأكبر ، وتقريب الموايظ ، ومنتهى العقول البواحي ، وشرح مختصر العقباني لم يتم ، ومدخل الكالين ، ومختصر مفيد في النحو ، وشرح ألفية ابن مالك والجرومية ، وجمل الزجاجي ، والملحة والخزرجية ، ومختصر في العروض ، ورحلته الحاوية لشيخه ، وكانت وفاته بباجة إفريقية سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م^(١).

- علي بن موسى بن عبد الله اللخمي البسطي القرباقي ، من أهل بسطة ، وصف بأنه كان فقيهاً عارفاً لأحوال العرب وأنسابها ، حافظاً للغاتها وأدابها ، له في العربية أوفر نصيب وفي التفسير والحديث والأصول والطب سهم مصيب ، وله كتاب في العربية يسمى التبصرة الكافية في علمي العروض والقافية على الخزرجية ، وكان زاهداً بالدنيا كثيراً ما يتمثل بقول الشاعر:

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ١٤/٦ - ١٥؛ التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص ٣٣٩ - ٣٤١.

وزهدني في الناس معرفتي بهم
وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلا تسرني
مباده إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملامة
من الدهر إلا كان إحدى المصائب

بقي في بسطة إلى أن غضب عليه واليها فأخرجه من بسطة إلى
برشانة فأقام بها عشرة أشهر ثم عاد لبسطة إلى أن توفي بها في الوباء
عاشر صفر عام ١٤٤٠/٥٨٤٤م وصلي عليه خارج المدينة لكثرة الناس في
جنازته^(١).

- عيسى بن حزم بن عبد الله بن عمر بن يسع الغافقي ، يكنى
أبا الأصبع ، من أهل كولية(قولية) من عمل بسطة ، كان عارفاً
بالقراءات القرآنية ، ووصف بأنه ((كان مقرئاً مجوداً ضابطاً متقناً ،
فقيهاً مشاوراً فاضلاً)) روى عنه العديد من أبناء عصره منهم أبو
القاسم بن بشكوال^(٢) ، وقال عنه ابن الأبار: ((كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّجْوِيدِ
وَالضَّبْطِ مَعَ الْوَرَعِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقَلُّلِ وَوَلِيَ خِطَّةَ الشُّورِيِّ بِهَا مُضَافَةً إِلَى
الْخُطْبَةِ بِجَامِعِهَا)) ، وأضاف أنه كان حياً سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م^(٣).

(١) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٢) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٩٣/٢.

(٣) التكملة، ٩/٤.

- قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصاري ، يكنى أبا محمد ، من أهل غرناطة سكن بسطة ، كانت له رحلة إلى المشرق لقي العلماء وأخذ عنهم ، كان صاحب جدل ومنطق وفقه ، وله باع في القراءات ، ولي القضاء ببسطة ، وكُلف الإقراء بجامعها ، وكانت وفاته سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م^(١).

- محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي العاص الأنصاري الأوسِي ، البَسْطِي ، يكنى أبا الجَيْش ، من أهل بسطة ، رحل إلى المشرق ثم حج وروى عن أهل مكة وغيرها ثم رجع إلى المغرب فسكن تونس ، كان مقدماً بالنحو ، صنف في الوثائق والآداب وله رجز في القراءات والطب ، وتوفي سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٣م^(٢).

- مُحَمَّد بن أحمد بن محمد بن رضوان بن أرقم النميري الوَادِي أَشْيِي ، يكنى أبا خالد ، من أهل وادي آش ، سكن بسطة ، كان متضلعاً بالعربية والشعر والفرائض والحساب ، ومن جميل شعره:

وَإِنْ كُنْتَ وَافِيئْتَهُ مَجْرَمًا فَإِنِّي فِي عَفْوِهِ أَطْمَعُ
وَكَيفَ أَخَافُ ذُنُوبًا مَضَّتْ وَأَحْمَدُ فِي زَلَّتِي يَشْفَعُ!
فَأَخْلَصُ دَعَاءَكَ يَا زَائِرِي لَعَلَّ الْإِلَّاهَ بِهِ يَنْفَعُ

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٢٠/٤.

(٢) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٨٩/٤ - ٩٠.

تولى القضاء بسطة وتوفي وهو عليها سنة ٦٩٤ هـ/١٢٩٤م^(١).

- مُحَمَّد بن جَابِر بن مُحَمَّد بن قَاسم بن مُحَمَّد بن أَحْمَد بن إِبْرَاهِيم بن حسان الْقَيْسِي ، كان حسن السيرة ، من أهل وادي آش سكن بسطة وولي قضاء بسطة وتوفي سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥٠م^(٢).

- مُحَمَّد بن خلف بن إِبْرَاهِيم بن أيوب بن إِبْرَاهِيم بن عُبادة ابن بالغ القرشي الهاشمي ، يكنى أبا بكر وأبا عبد الله ، من أهل بسطة وتولى الخطابة في جامعها والقضاء فيها ، فحُمدت سيرته ، واشتهر بالقراءات ، وَكَانَ ورعاً مُتقناً ، توفي سنة ٦١١ هـ/١٢١٤م^(٣).

- محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن أرقم النُميري ، يكنى أبا يحيى ، من أهل وادي آش سكن بسطة ، وصفه ابن الخطيب بقوله: ((كان صدرًا شهيرًا ، عالمًا علمًا ، حسيبًا ، أصيلاً ، جمّ التحصيل ، قويّ الإدراك ، مضطلعاً بالعربية واللغة ، إماماً في ذلك ، مشاركاً في علوم من حساب وهيئة وهندسة))^(٤) ، وله عدة مصنفات منها كتاب الاحتفال في الاستيفاء ما للخيل من الأحوال ، وكتاب في علم النجوم ، وكتاب في الاضطراب ، وشجرة في أنساب العرب ، تولى قضاء مرشانة من عمل بسطة ، وتوفي سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦م^(٥).

(١) السيوطي، بغية الوعاة، ٤٢/١.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٥٣/٥.

(٣) ابن الأبار، التكملة، ١٠٦/٢ - ١٠٧- ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٢٣/١٣.

(٤) الإحاطة، ٨٢/٢.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ٨٢/٢.

- محمد بن عيسى بن محمد بن معلي بن أبي ثور الحضرمي الوراق ، من أهل بسطة ، ثم سكن قرطبة ، يكنى أبا عبد الله ، كان محدثاً روى عن أحمد بن سعيد بن حزم^(١) وأبي عبد الله بن مفرج^(٢) ، كان رجلاً صالحاً ثقة ، وكان حسن الخط ، جيد الضبط ، توفي سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م^(٣).

- مُحَمَّدُ بن مُحَمَّد بن خلف بن إبراهيم بن بالغ الهاشمي ، من أهل بسطة ، يكنى أبا ، ولي الصلوة والخطبة ببلده بسطة وحدث بها ، وَكَانَ ذَا مُشَارَكَةٍ فِي الْعَرِيَّةِ ، كان حياً في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م^(٤).

- مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن علي بن باز اليحصبي ، من أهل بلس المعروف بالسكة عمل بسطة ، يكنى أبا عبد الله ، سمع أبا القاسم ابن حبيش^(٥) وغيره ، وَكَانَ أَدِيباً ماهراً ، قال عنه ابن الأبار: حدث

(١) أحمد بن سعيد بن حزم، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، وهو والد أبي محمد بن حزم، كان مناهل العلم والأدب، توفي سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م، ينظر: ابن بشكوال، الصلة، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج يكنى أبا عبد الله مولى الأمير عبد الرحمن الأوسط، من أهل قرطبة، محدث له رحلة إلى المشرق، ثم رجع وتولى القضاء للحكم المستنصر، وتوفي سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٣) ابن بشكوال، الصلة، ص ٤٥٧.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ١١٢/٢.

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش، يكنى أبا القاسم، من أهل قرطبة، فقيه ومحدث وأديب ونسابة، توفي سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م، ينظر: الضبي، بغية الملتبس، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

عَنهُ بعض أَصْحَابِنَا^(١) ، أَي أَنه من أبناء القرن السابع الهجري/
الثاني عشر الميلادي.

- محمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد البلوي ، من
أهل المرية وسكن بسطة وتولى القضاء بها ، كان شاعراً عالماً في
الفرائض وألف فيها نظماً ، وتوفي سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧م^(٢).

- محمد بن موسى بن هشام الهمداني المرسي ، من أهل
مرسية ، محدثاً سكن بسطة وتولى القضاء بها ، وتوفي فيها سنة
٦٢٤ هـ/١٢٢٦م^(٣).

- معزوز بن حبيب ، من أهل طيالة عمل بسطة ، يكنى أبا
الشرف ، روى عن أَبِي مُحَمَّد بن عتاب^(٤) وَغَيْرِهِ وَوَلِي الخُطْبَةِ ببلدة
أو بسطة^(٥) ، وهو من أبناء القرن الخامس الهجري/السادس
الميلادي.

- المنذر بن رضى الرعيني ، يكنى أبا الحكم ، من أهل بسطة ،

(١) التكملة، ١١٨/٢.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٦٦/٣ - ١٦٨.

(٣) ابن الأبار، التكملة، ١٢٧/٢ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٧٨٤/١٣.

(٤) هو محمد بن عتاب بن محسن، يكنى أبا عبد الله، من أهل قرطبة وممن
أشتهر بالفتوى، روى عن خلف بن يحيى بن غيث وأبي المطرف القنازعي
وغيرهم، كان فقيهاً عالماً ورعاً بصيراً بالحديث وعالماً بالوثائق وعلماً، ومدار
الفتوى في وقته، توفي سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م، ينظر: ابن بشكوال، الصلة،
ص ٤٢٧ - ٤٢٩.

(٥) ابن الأبار، التكملة، ٢٠٧/٢.

كان بارعاً بالأدب والشعر بليغاً ، خدم عند الدولة الموحدية ومدح رجالاتها ، كما خاض في أغراض الشعر الأخرى منها في صفة راقصة:

راقصة لا تحس وطأتها تخالها في الخفوف كالطيف

تنقل أقدامها على عجلٍ كأنما رقصها على سيف^(١)

- موسى بن يوسف بن موسى بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن المغيرة بن سُرحبيل الأزدي ، المعروف بمزدي ، من أهل بسطة ، كان عالماً بالقراءات ، ويميل إلى التصوف ، توفي ببسطة سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م^(٢).

- الوليد بن أبي شداد الأزدي البسطي ، يكنى أبا الحسن ، محدث من أهل بسطة رحل إلى الإسكندرية وتفقه هناك على أبي بكر الطرطوشي ، ثم رجع إلى مدينة بسطة سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م أو ٥١٣ هـ/١١١٩ م ، وتوفي هناك بعد هذا التاريخ^(٣).

- هشام بن عبد العزيز بن دريد الأسدي ، يكنى أبا الوليد ، من أهل بسطة ، كان عالماً بالأدب والأخبار ، توفي ببسطة سنة ٤٣٨ هـ/١٠٥٦ م^(٤).

- يحيى بن مُحَمَّد بن دُرَيْد الأَسدي ، يكنى أبا بكر ، أبو بكر ،

(١) ابن عسكروابن خميس، مطلع الأنوار، ص ٢٠٠ - ٢٠٣؛ أعلام مالقة، ص ٢٠٠.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٣/١٠٦.

(٣) السلفي، معجم السفر، ص ٤٣٢.

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ص ٦١٧.

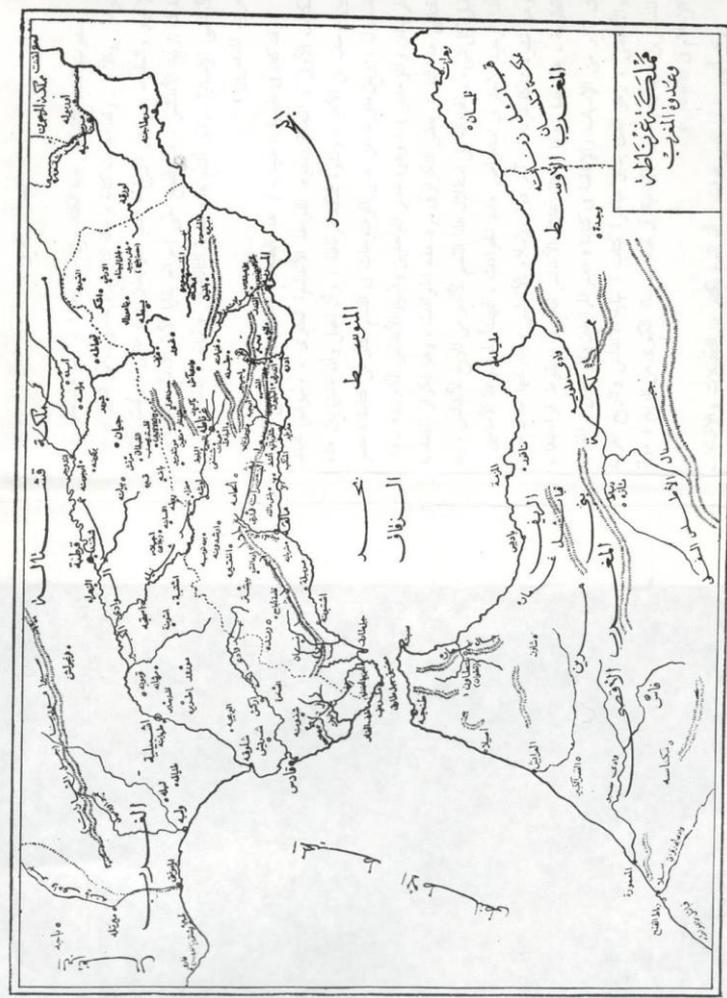
كَانَ فَقِيهًا أَدِيبًا لُغَوِيًّا فَاضِلًا دِينًا ، وَلِي الْقَضَاءِ بِمَدِينَةِ بَسْطَةَ ، رَوَى
عَنْ أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِي^(١)(٢) ، فَهُوَ مِنْ أَبْنَاءِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهَجْرِيِّ/
الْحَادِي عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ.

- يَوْسُفُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْفِ بْنِ عَبْدِهِ ، يَكْنَى أَبُو الْحِجَاجِ ،
مِنْ أَهْلِ لَرِيَّةِ ، سَكَنَ بَسْطَةَ وَتَوَلَّى الْقَضَاءَ بِهَا ، اشتهر بالحديث
والأدب وله حظ من الشعر ، توفي بعد سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣م^(٣).

(١) هو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي فقيه وحدث وملك له
رحلة إلى المشرق حيث أقام هناك ثلاثة عشر ثم رجع إلى الأندلس وكان له
دور في الدعوة إلى التوحيد أيام دويلات الطوائف، توفي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ،
ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ص ٢٨٠- ٢٨١؛ الحجوي، التاريخ الأندلسي،
ص ٣٣٦- ٣٤٤.

(٢) السيوطي، بغية الوعاة، ٢/٣٤١.

(٣) ابن الأبار، التكملة، ٤/٢١٦.



من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، عنان، ٨/٥.

مصادر ومراجع الكتاب

أولاً: المصادر الأولية

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م)
- ١ - التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٩٩٥م
- ٢ - الحلة السُّبْرَاء، تحقيق حسين مؤنس، ط٢، مصر ١٩٨٥م.
- ٣ - معجم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ٢٠٠٠م.
- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)
- ٤ - الأندلس من الكامل في التاريخ، جمعه وحقق نصوصه جاسم ياسين الدرويش، ط١، دمشق، ٢٠١٥م
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحميري الحسني (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م).
- ٥ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي (ت ٣٧٠هـ / ٩٨١م)
- ٦ - تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتري (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)
- ٧ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار

- الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٨ - ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م)
- التهواري، ط٢، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ٩ - المسالك والممالك، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن بلقين، عبد الله (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م).
- ١٠ - مذكرات الأمير عبد الله المسمى بكتاب التبيان، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)
- ١١ - الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
- البيدق، أبو بكر علي الصنهاجي (ت قبل ٥٨٠هـ / ١١٨٤م)
- ١٢ - أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، والوراقة، الرباط، ١٩٧١م.
- النتبكتي، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد التكروري السوداني (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦م)
- ١٣ - نيل الابتهاج بتطريز الديقاج، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط٢، دار الكتاب، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٠م.
- ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد بن يوسف (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م)
- ١٤ - غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة ابن تيمية، عني بنشره ج. برجستراسر، ١٣٥١ هـ.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م)
- ١٥ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد خان،

- ط٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد، الهند، ١٩٧٢م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)
- ١٦ - جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م
- الحميدي، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م)
- ١٧ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: حوالي ٧١٠هـ / ١٣١٠م)
- ١٨ - الروض العطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م)
- ١٩ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس (للقبلة ٢٣٢ - ٢٦٧هـ / ٨٤٦ - ٨٨٠م) تحقيق محمود علي مكي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٢٠ - المقتبس (للقبلة ٢٧٥ - ٣٠٠هـ / ٨٨٨ - ٩١٢م)، تحقيق إسماعيل العربي، ط١، منشورات دار الأفق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م.
- ٢١ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس (للقبلة ٣٠٠-٣٣٠هـ / ٩١٢-٩٤١م)، تحقيق ب. شاميتا بالتعاون مع كورنيطي و م. صبح، منشورات المعهد العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٩م.
- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الاشبيلي (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م)
- ٢٢ - قلائد العقيان في محاسن الأعيان، طبعة بولاق، ١٨٦٦م.
- ابن الخراط، أبو محمد (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م)

- ٢٣ - اختصار اقتباس الأنوار، تقديم و تحقيق ايميليو مولينا و خافينتو بوسيك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون العربي، مدريد ١٩٩٠م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م).
- ٢٤ - الإحاطة في أخبار غرناطة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
- ٢٥ - أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام المسمى بتاريخ اسبانيا الإسلامية، تحقيق سيد كسروي حسن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ٢٦ - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، عني بتصحيحه السيد البشير الفورتي، ط١، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، بدون تاريخ.
- ٢٧ - خطرة الطيف في رحلات في المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ٢٨ - ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٢٩ - الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٣م.
- ٣٠ - كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٣١ - اللوحة البدرية في الدولة النصرية، صححه ووضع فهرسه ونشره، محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- ٣٢ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩م)
- ٣٣ - ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو،

- مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٧ م.
- ٣٤ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)
- والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).
- ٣٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.
- الداودي، محمد بن علي بن أحمد (ت ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م)
- ٣٦ - طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني (ت ٣٧ - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط١، تونس ١٢٨٦ م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)
- ٣٨ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ٣٩ - سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣هـ / ٩٢٥م)
- ٤٠ - الحاوي في الطب، اعتنى به هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- الرشاطي، أبو محمد (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)
- ٤١ - الأندلس من اقتباس الأنوار، تقديم وتحقيق ايميليو موئينا وخايننتو بوتيك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٨٠م.
- الزبيدي، حمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م)

- ٤٢ - تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت.
- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (كان حيا سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)
- ٣٥ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.
- ٤٣ - الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢م.
- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت بعد ٥٤١هـ/ ١١٥٤م)
- ٤٤ - كتاب الجغرافية، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م)
- ٤٥ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة دار الحياة، بيروت.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م)
- ٤٦ - الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- ابن سعيد، علي بن موسى (ت ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م أو ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م)
- ٤٧ - المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج١، ١٩٥٣ م، ج٢، ١٩٥٥ م.
- السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني (ت ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م)
- ٤٨ - أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣ م.
- ٤٩ - معجم السفر، تحقيق عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦ م)
- ٥٠ - المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ م.
- ٥١ - المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦ م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥ م)
- ٥٢ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان .
- ٥٣ - تاريخ الخلفاء، تحقيق إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨ م.
- ٥٤ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٦٧ م.
- شيخ الريوة، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦ م)
- ٥٥ - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م.
- ابن أبي صاحب الصلاة، عبد الملك (ت حوالي ٥٩٤هـ / ١١٩٨ م)
- ٥٦ - تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٧٩ م.
- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري (ت ٢١١هـ / ٨٢٧ م)
- ٥٧ - المصنف، دار التأسيس، القاهرة، ٢٠١٥ م.
- الضبي، أبو جعفر أحمد بن عيسى (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢ م)
- ٥٨ - بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م
- ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ م)

- ٥٩ - الذليل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٥م.
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)
- ٦٠ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س كولان وإ - ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥١م؛ ج٢، ج٣، ج٤، والجزء الخاص بالموحدين تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.
- العذري، أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م)
- ٦١ - نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت.
- ابن عسكر، أبو عبد الله بن عسكر (ت ٦٣٦هـ / ١٢٢٨م، وابن خميس، أبو بكر بن خميس (ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م)
- ٦٢ - أعلام مالقة، تقديم وتخريج وتعليق: الدكتور عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م.
- ٦٣ - مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، تقديم وتخريج وتعليق عبد الله المرابط، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ١٩٩٩م.
- العليمي، أبو اليمين عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م)
- ٦٤ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان.
- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد الكاتب (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)
- ٦٥ - خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق أذرتاش أذرنوش، الدار

التونسية للنشر، تونس ١٩٧١م.

- ابن غالب، محمد بن أيوب بن غالب البلبسي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م)
- ٦٦ - قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٦م.
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
- ٦٧ - تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦م)
- ٦٨ - العين، تحقيق مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م)
- ٦٩ - تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى القرشي العدوي (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م)
- ٧٠ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣ هـ.
- الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٥ م)
- ٧١ - القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط ٨، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- ابن قتيبة، أبو عبد الله محمد بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
- ٧٢ - أدب الكاتب، ط ٤، المكتبة التجارية، مصر، ١٩٦٣ م.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م).
- ٧٣ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩ م.

- ابن القطان، حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي المراكشي (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)
- ٥٧ - نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، ط٢، دار الغرب العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
- القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
- ٧٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م)
- ٧٥ - تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م.
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري (من علماء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)
- ٧٦ - تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نسان جديان، تحقيق أحمد مختار العبادي، مطبعة الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.
- مجهول، مؤلف (ت القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي).
- ٧٧ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مجريط، ١٨٦٧م.
- مجهول، مؤلف (ت في حدود ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م).
- ٧٨ - تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بويابة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، والنسخة الأخرى بتحقيق لويس مولينا، بعنوان ذكر بلاد الأندلس، مدريد، ١٩٨٣م.
- مؤلف مجهول (كان حياً سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م)
- ٧٩ - نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق محمد رضوان الدية، دار حسان، دمشق، ١٤٠٤هـ.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)

- ٦٢ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- ابن معصوم، علي صدر الدين بن محمد المدني الحسيني (ت ١١١٩ هـ / ١٧٠٧م)
- ٨٠ - الطراز الأول والكناز لما عليه لغة العرب المعول، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.
- معمر بن راشد، أبو عروة معمر بن راشد الأزدي (ت ١٥٣ هـ / ٧٧٠ م)
- ٨١ - جامع معمر بن راشد، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.
- المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م).
- ٨٢ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد العظيم شليبي، القاهرة، ١٩٣٩ م.
- ٨٣ - نصح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
- ٤٨ - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد الله عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي الأندلسي (ت ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩ م)
- ٨٥ - تاريخ قضاة الأندلس المسماة المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣ م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م)
- ٨٦ - نهائية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي
(ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)
- ٨٧ - الأندلس من معجم البلدان، حققه وعلق عليه جاسم ياسين
الدرويش، ط١، البصرة ٢٠١٢م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ ٨٩٧م أو بعد ٢٩٢هـ
/ ٩٠٤م)
- ٨٨ - البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.

ثانياً: المراجع الحديثة

- إبراهيم مصطفى وآخرون
١ - المعجم الوسيط، منشورات دار الدعوة.
- أحمد مختار
٢ - معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٨م.
- أرسلان، شكيب
٣ - خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة، مطبعة المينا، مصر،
١٩٢٥م.
٤ - الحلل السندسية في الأخبار والأثار الأندلسية، ط١، المطبعة
الرحمانية، مصر، ١٩٣٦م.
- أشباخ، يوسف
٥ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله
عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.
- إيرفنغ، واشنطن
٦ - أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هادي يحيى نصري، مؤسسة الانتشار
العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م

جابر، جابر خليفة

- ٧ - بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس (٥٢٨ - ٦٣٦هـ / ١١٣٤ - ١٢٣٨م) ط١، دمشق ٢٠١٧م.
- الحجى، عبد الرحمن علي.
- ٨ - التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢ - ٨٩٧هـ / ٧١٠ - ١٤٩١م) ط١، بغداد، ١٩٧٦م
- خطاب، محمود شيت
- ٩ - قادة فتح الأندلس، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- الدرويش، جاسم ياسين
- ١٠ - أعلام نساء الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧م.
- الدرويش، جاسم ياسين، والعلياوي، حسين جبار
- ١١ - برشلونة بين الإسلام والنصرانية، دار تموز للطباعة، دمشق، ٢٠١٧م.
- ١٢ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، (لاردة - بياسة - أستورقة)، دار تموز للطباعة، ط١، دمشق، ٢٠١٧م.
- دندش، عصمت عبد اللطيف
- ١٣ - الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
- دوزي، رينهت
- ١٤ - تكلمة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، من ١٩٧٩م - ٢٠٠٠م.
- ١٥ - المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، مصر، ١٩٨٤م.
- سالم، عبد العزيز
- ١١ - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانبة، أثرية في العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١ م.

- السامرائي، خليل إبراهيم.
- ١٦ - علاقات المرابطين بالممالك الأيبانية بالأندلس وبيادول الإسلامية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦ م.
- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون.
- ١٧ - تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٦ م.
- السجل ماسي، عبد الرحمن بن محمد
- ١٨ - إتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨ م.
- السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد الناصري
- ١٩ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، بدون تاريخ.
- الشمري، يوسف كاظم جغيل
- ٢٠ - دراسات في تاريخ الأندلس، العلاقات السياسية لسلطنة غرناطة في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ط١، دار العلوم العربية للطباعة، بيروت، ٢٠١٤ م.
- طه، عبد الواحد ذنون.
- ٢١ - الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، ١٩٨٢ م.
- عنان، محمد عبد الله
- ٢٢ - الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال دراسة تاريخية أثرية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧ م.
- ٢٣ - دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج١، ٢، ٥ / الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ج٣، ٤، ط٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- فريد بك، محمد

- ٢٤ - تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، ١٩٨١ م.
- الكتاني، علي بن محمد المنتصر
- ٢٥ - انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- كراتشوفسكي، أغناطيوس يولييانوفتش
- ٢٦ - تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- مؤنس، حسين.
- ٢٧ - فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ٩٢ - ٧١٠ هـ / ٧١٠ - ٧٥٥ م، ط١، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- المياح، عبد الرحمن رشك
- ٢٨ - أوربا في كتب البلدانين العرب المسلمين، دراسة في الأحوال الطبيعية والبشرية والاقتصادية، ق ٣ - ٨ هـ / ٩ - ١٤ م، بغداد، ٢٠٠٨ م.
- النويهض، عادل
- ٢٩ - معجم المفسرين، ط٢، بيروت، ١٩٨٨ م.
- هنتس، فالتر
- ٣٠ - المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي، عمان ١٩٧٠ م.

المحتويات

المقدمة	٥
الفصل الأول: الجغرافية التاريخية للمدينة بسطة	٧
أولاً: الموقع والتسمية	٧
ثانياً: نشاطها الاقتصادي	١٧
الفصل الثاني: التاريخ السياسي لمدينة بسطة حتى نهاية عصر الخلافة	
أولاً: فتح مدينة بسطة واستقرار المسلمين فيها	٣١
ثانياً: مدينة بسطة في عصري الإمارة والخلافة	٣٦
الفصل الثالث: مدينة بسطة في عهود الطوائف والمرابطين والموحدين وبني الأحمر	
أولاً: بسطة في عصر الطوائف	٤٦
ثانياً: بسطة في العهد المرابطي	٥٦
ثالثاً: بسطة في عهد الموحدين	٦٦
رابعاً: بسطة في عهد بني الأحمر	٨٦
الفصل الرابع: سقوط مدينة بسطة بيد نصارى قشتالة	
أولاً: الصراع السياسي في دولة بني الأحمر وأثره على مدينة بسطة	
	١٠٩
ثانياً: الهجوم الأول على بسطة وسقوط حصن طشكر سنة ٨٩٣	
هـ/١٤٨٨م	١١٧
ثالثاً: الهجوم الثاني على مدينة بسطة سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٩م	١٢٧
رابعاً: محاولات الاستغاثة	١٣٨

خامساً: الهجوم الأخير واستسلام بسطة سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م

١٤٤

سادساً: نتائج سقوط مدينة بسطة على الأندلس . ١٥٥

الفصل الخامس: الحركة الفكرية في مدينة بسطة . . . ١٦١

مصادر ومراجع الكتاب ١٨١